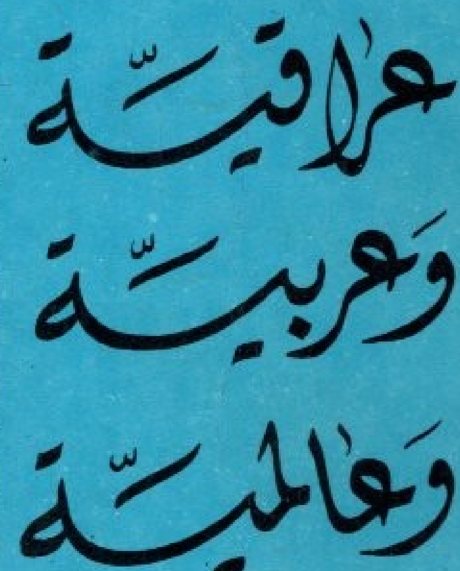
محمود شبيب

أسرار


فاروق



عراقية وعربية وعالمية


بكر صدقي


هتلر

م. سرمد حاتم شكر

منشورات
شركة التايمس للطبع والنشر المساهمة
شارع الرشيد - السنك - بغداد هاتف ٨٨٨٩٩٢

محمود شبيب

أسرار عراقية وعربية وعالمية

شركة التايمس للطبع والنشر المساهمة
شارع الرشيد - السنك - بغداد هاتف [illegible]

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
٢٣/ رجب/ ١٤٤٣هـ
٢٥/ ٢/ ٢٠٢٢م

م. سرمد حاتم شكر

جميع الصور والوثائق الواردة في هذا الكتاب تعود الى جهود المؤلف الخاصة ولا علاقة لاي كان بها .

الـــى
رفيقـــة العمـــر
الراحلـــة قبـــل الاوان

مقدمة

عندما شرعت بوضع المقالات عن التاريخ الحديث للعراق ، تطورت الامور بشكل لم اتوقعه ، اذ انني سلكت طريق تأليف الكتب عن الفترة القريبة ، والغامضة بالتأكيد ، من هذا التاريخ .

وسرعان ما تطور اهتمامي الى مجالات أخرى تدور حول الاسرار التي اكتنفت الوضعين العربي والعالمي ابتداء من مطلع القرن العشرين ، وبالتحديد الفترة التي صحبت اندلاع نار الحرب العالمية الاولى وما قبلها بقليل .

ومن الطبيعي ان القارىء يلاحظ في مواضيع هذا الكتاب التنوع في الحديث والوثائق والصور ؛ فمن حسن الحظ أنه توفر امامي من المصادر ما قد يساعد على وضع عدد كبير من الاجزاء الاخرى بعون الله .

والواقع ، فان الذي زاد من مساعدتي على البحث والتنقيب أن المجلات والدوريات العراقية والعربية قد فتحت صدرها امامي ، ودون تحفظ ، لممارسة نشاطي بهذا فانا مدين لكل من «آفاق عربية» و «الف باء» و «آفاق جامعية» و «الجامعة» ... الخ .

ولقد صدرت لي ، حتى الان ، الكتب التالية :

١ - محمود سلمان ... طريق المجد الى ارجوحة الابطال .

٢ - اسرار عراقية في وثائق انكليزية وعربية والمانية .

٣ ـ جوانب منيرة من تاريخ العراق المعاصر .

٤ ـ صفحات مطوية من امس العراق .

٥ ـ صفقة جواسيس في برلين .

٦ ـ حكايات تاريخية عراقية .

٧ ـ قضايا ملتهبة في السياسة العراقية .

والى انجازات المستقبل ...

محمود شبيب

١

بريطانيا وغـزو العـراق

منذ ان دخل الانكليز بلادنا واحتلوا مجمل اراضيها ، ظل المؤرخون يحاولون ايهام القراء بأن المسألة غير مقررة وان عملية الغزو جـاءت بمثابة رد فعل لما قد يقوم به الاتراك بالتعاون مع الالمان[١] ضد مصالـح «لندن» في منطقة «شط العرب» خاصة ومشيخات «الخليج العربي» عامة[٢].

وقبل الحديث عن تطورات الحملة العسكرية والسياسية هذه ، نود الاشارة الى أن المس «جيرترود بيل» التي كانت تعمل لحساب المخابـرات البريطانية وتتخذ من «دمشق» مركزا لنشاطها بحجة البحث عن الاثار قد جرى تكليفها سنة ١٩١٣ قبل عام كامل من اندلاع نار الحرب العالميـة الاولى بالقيام بمهمة في غاية السرية في مقاطعة «نجد» كما كانت «المملكـة العربية السعودية» تعرف آنذاك .

فشـل

ما هي المهمة ؟ كانت منطقة حايل تحت سلطة «آل الرشـيد»[٣] الموالين للاتراك ، ولما كانت الخطط موضوعة في ادراج مكاتب القـادة

---

١ ـ بدأ التحالف بين الامبراطوريتين العثمانية والالمانية منذ أمد بعيد .

٢ ـ خضعت الاخيرة للحماية البريطانية ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر .

٣ ـ بكسر الراء وتسكين الشين .

العسكريين الانكليز في «الهند» لاحتلال «العراق» فقد صار من الضروري الاستعداد مقدما لضمان سلامة ميسرة القوات البريطانية ـ الهندية التي ستزحف بمحاذاة «نهر الفرات» في الطريق شمالا ومن ثم الاستدارة شرقا نحو «بغداد» .

اما بالنسبة الى «دجلة» فقد كانت جبهته مضمونة نتيجة لسيطرة الانكليز على الاجزاء الجنوبية والغربية من «ايران» وضمانهم لولاء القبائل المقيمة على جانبي النهر خاصة منطقتي «العمارة» و «الكوت» .

وعلى الرغم من ان جعبة «الخاتون»[٤] كانت محملة بشتى انواع الوعود والهدايا بالطبع ، الا ان مهمتها لم تحقق النجاح لعدة اسباب منها ما قيل من أن والدة الامير «محمد الرشيد» الصغير السن نسبيا والذي كان في مهمة قتالية ضد سلطة «عبدالعزيز السعود» غريمه الاول على مقربة من الحدود مع «الكويت» قابلت العرض بالرفض ، وقيل ايضا ان العائلة كانت حاقدة على الانكليز الذين سبق لهم تسيير عدة حملات من «الكويت» خاصة على عشائر المنطقة بداية القرن العشرين .

حجة واهية

الطالب «دراسا سنغ» الهندي حصل على شهادة عليا من جامعة «بنسلفانيا» مقابل اطروحته المسماة «الخليج وشماله» والتي ظهر نقد لها في مجلة «الايكونومست» اللندنية .

---

٤ ـ لقب اطلقه العراقيون على المس «بيل» ويعني «المرأة المحترمة» بعد ان اصبحت في مركز «السكرتيرة الشرقية لدار الاعتماد البريطاني» ببغداد اعتبارا من عام ١٩١٧ .

تقول الاطروحة ان الانكليز ، في الواقع ، لم يحركوا جنديا واحدا في هذه الجبهة الا لتحقيق غرضين اثنين اولهما : القضاء على احلام المانيا التي كانت تطمع بمراكز تجارية وسياسية • ومن الاغراض التي استطاعت تحقيقها فعلا جعل البصرة نهاية سكة جديد «برلين ـ بغداد» التي كانت اعظم مشروعاتها السياسية قبل الحرب مع الامل بايصال السكة الى الكويت ايضا •

وثانيهما : الوصول الى مراكز النفط التي يتوقع لها ان تكون غنية في العراق[٥] وهذا هو بيت القصيد •

وكانت الحجة الواهية للحملة درء الخطر عن الهند ، مع أن الاتراك لم يفكروا في تهديد الاخيرة وغيرها في تلك الفترة ولا كان باستطاعتهم ان يفعلوا شيئا من هذا •

منهاج جديد

في الواقع ، كانت الحملة تدبيرا احتياطيا لمنع الالمان والترك من الاستيلاء على منابع النفط جنوبي «ايران» ثم تطور ذلك التدبير الاحتياطي الى منهاج جديد يرمي الى التقدم الى امام ـ اي تهيئة الاذهان لامر منتظر ـ • وبينما كانت قوات اخرى من الجيش البريطاني تمد خطا حديديا من

---

٥ ـ كان الانكليز قد حصلوا على امتياز لاستثمار النفط الايراني في منطقة «عبادان» وهو الامتياز المعروف باسم «دارسي» وقد عقد بواسطة الارمني «كولبنكيان» •

«مصر»[٦] الى «فلسطين»[٧] عبر صحراء «سيناء» كانت قوات انكليزية وهندية اخرى تتقدم نحو الشمال خلال ما بين النهرين ولم يكن الهدف الحقيقي حماية الابار النفطية الايرانية بل الالتقاء ، ان امكن ، مع القوات الاولى في مكان ما من «سوريا» ثم الاستيلاء على مكان النفط في ولاية «الموصل» •

متاعب عظيمة

ومن حسن حظ اعداء تركيا انها كانت تعاني من متاعب عظيمة عندما جابهت معظلات الحرب ؛ فقد كانت تنقصها السكك الحديد والطرق الجيدة المعبدة • وكان رأسها في «اوربا» معلقا بجسمها في «اسيا الصغرى» حيث تقوم العاصمة «استانبول» ، هذا اضافة الى انها كانت تعاني مشقات عظيمة في وصول النجدات اللازمة من حليفاتها في اوربا الوسطى ، خاصة المانيا لبعد حدودها عنها •

وللدلالة على صحة ما نقول ، فان اي رحلة من «بغداد» الى العاصمة العلية[٨] ، مثلا ، كانت تتطلب ثلاثة شهور على ظهور الدواب • اما القول بوجود سكة حديد برلين ــ بغداد فانه غير واقعي ذلك ان السكة وصلت الى «الموصل» ثم توقف مدها ، وبعد ذلك شيدت سكة اخرى من «بيجي» على مسافة بعيدة جنوبي «الموصل» الى «بغداد» والبصرة وظل الامر كذلك

---

٦ ــ الواقعة تحت الاحتلال البريطاني منذ عام ١٨٨٢ •

٧ ــ الخاضعة للسيطرة التركية •

٨ ــ اسطنبول •

حتى نهاية الحرب العالمية الاولى وبعدها بوقت طويل .

تطـــور الحركات

والواقع ، فانه قبل ان تشرف سنة ١٩١٤ على نهايتها كانت «تركيا» او «رجل اوربا المريض» كما كانت تعرف آنذاك ، تقاتل على ثلاث جبهـات : اثنتان قامت بفتحهما بريطانيا ... الاولى في مضايق الدردنيل القريبة مـن العاصمة .. والثانية في العراق حيث صار واضحا ان الانكليز يريـــدون الزحف على «بغداد» وربما ابعد من ذلك ... والثالثة في القوقاس حيث أخذ الاتراك يغيرون على حدود روسيا القيصرية .

والواقع ، فان الدولة العثمانية لم تفلح الا في جبهة «الدردنيل» حيث استطاعت رد اساطيل الحلفاء مـــن بريطانـــيين وفرنسيين واستراليـــين ونيوزيلنديين على اعقابها بعد معارك ضارية برز فيها اسم القائد «مصطفى كمال» الذي قيض له ، فيما بعد ان ينقذ تركيا من نهاية مفجعة بعـــد خسارتها الحرب ويوجد النظام الجمهوري فنال لقب «اتاتورك» اي «والد الاتراك» .

واسكتت المدافع

وقبل حلول شهر تشرين الاول ، كان قد تقرر في «نيودلهـي»[٩] ارسال حملة هندية (ظاهرها بريطاني) الى الخليج العربي لتنفيذ الخطـــة المرسومة . وكان عددها يبلغ قرابة خمسة الاف بين ضابط وجنـــدي حملتهم السفن بقيادة الجنرال «ديلامين» .

---

٩ ـ عاصمة السلطة البريطانية في شبه القارة .

ومن ثم اعلنت الحرب رسميا على الدولة العثمانية في الخامس من الشهر التالي ؛ وفي السادس منه اطلقت البارجة «اودين» القذيفة الاولى على الاراضي العراقية ثم صبت نيرانها على الحصون التركية في «الفاو» على فم الخليج وحيث يوجد مصب «شط العرب» فيه وبعد أقل من ساعة اسكتت المدافع فيها ، وكلها من طراز عتيق ، فاحتلت القوات الانكليزية البلدة في نفس المساء •

المسألة اخطر

وبعد ذلك ، تابع الانكليز صعودهم شمالي الشط فاستطاعوا التوغل ثلاثين ميلا ؛ وكانت غايتهم الاولى الوصول الى معمل تكرير النفط في «عبادان» للمحافظة عليه • وبعد ثلاثة ايام فقط وصل «العراق» الجنرال «باريت» وتسلم قيادة القوات البريطانية في المنطقة • وقد تبين من كثافة القوة التي اصطحبها معه ان المسألة اخطر من المحافظة على نفط «عبادان» اذ رافقته سبع عشرة سفينة مشحونة بالجنود والمعدات !

وبعد معركة نهرية وبرية خاطفة اسفرت عن تراجع الترك عن «ابي الخصيب» ، ادرك «باريت» قيمة ما حققه عندما وصل الى علمه ان العثمانيين قد اخلوا «البصرة» وانسحبوا منها في اتجاهين ، الاول : نحو العمارة على «دجلة» والثاني الى «الناصرية» على «الفرات» • وكانت النتيجة ان بادر الانكليز الى احتلال «البصرة» في ٢٣ تشرين الثاني دون اطلاقة واحدة •

وبهذه النتيجة غير المتوقعة كما يقول الدكتور سنغ ، فان حكومة

«الهند» الاسمية شكلا والبريطانية فعلا قررت «ان تثابر القوات الانكليزية على التقدم والزحف ... وان تكون بغداد هدفها الاول ، وليس الاخير نظرا لضعف الحاميات التركية وحاجتها الى وسائل النقل في النهر والبر» .

يحترمون العواطف

السير «بيرسي كوكس» الملقب «الضابط السياسي الاول المرافق للحملة على العراق» لم يلبث ان طلب من الوجهاء والتجار عقد لقاء معه في المبنى السابق للقنصلية البريطانية في «العشار» حيث خطب فيهم



بيرسي كوكس

يقول : «ان حكومة صاحب الجلالة لا مطامع لها في بلادكم سوى استمرار التبادل التجاري الذي كان قائما بيننا طوال قرون • وانني اعدكم بأن بلادنا ستحافظ على الاماكن المقدسة وتضمر الاحترام لها ، وفي نفس الوقت فانني اقول أن مستقبلكم السياسي سيتقرر بعد انتهاء هذه الحرب الضروس•»

كان «انور باشا» وزير الحربية والرجل الاولى في الدولة العثمانية قد ادرك بأن مسألة «حماية مصافي النفط والهند والتوقف عند القرنة» ليست سوى جزء من الاعيب السياسة الانكليزية ، لذا اصدر أوامره الى ابن اخته القائد العام في العراق وهو «خليل باشا» بان تكون المقاومة شديدة ، وبالفعل كان حدس الرجل صادقا !

بعد الكوت

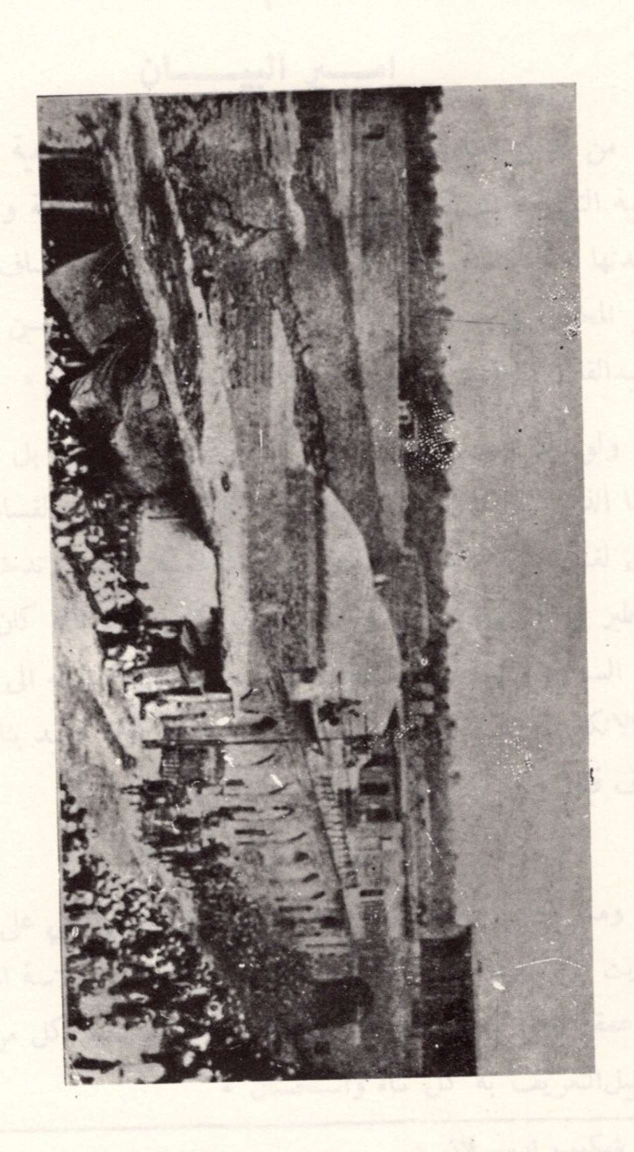
لم يلبث الانكليز بعد احكام قبضتهم على «البصرة» ان تقدموا شمالا في رتلين : الاول نحو «الناصرية» والثاني الى «العمارة» فالكوت ثم «بغداد» سواء من الاتجاهين سوية او من احدهما • وعلى الرغم من ان هؤلاء استطاعوا السيطرة على «الناصرية» في ٢٥ تموز ١٩١٥ والعمارة في ٣ حزيران والكوت في ٢٨ ايلول ذلك العام ، الا ان الفشل الذريع ، وهو الاول والاخير في ميدان القتال قد واجههم في معركة «سلمان باك» أواخر تشرين الثاني حيث استطاع «خليل باشا» ان يلحق بهم هزيمة شنعاء ادت الى تقهقرهم عائدين الى «الكوت» وهناك قرر الجنرال «طاوزند» الذي تولى قيادة الحملة عند هذه المرحلة التحصن بانتظار مجيء تعزيزات من «البصرة» قادمة من «الهند» •



خليل باشا (الى اليمين) مع طاوزنـد (الوسط) وضباطهما في بغـداد بعد استسلام الاخير .

وعلى الرغم من ان الترك استطاعوا احكام الحصار حول «طاوزنـد» وجنوده في «الكوت» حتى ارغموهم على الاستسلام في ٢٩ نيسان ١٩١٦ ، الا ان الاحداث التي اعقبت ذلك اثبتت صحة ما ذهب اليه الطالب الهندي في دراسته ، فما ان اوشك نفس العام على الانتهاء حتى كانت الجيوش الانكليزية والهندية[١٠] تزحف من «البصرة» مرة اخرى لتحقيق احتلال «الكوت» ومنها الى «بغداد» وبعد ذلك الى «خانقين» وما بعدها و «الفلوجة» وغربيها وكل ذلك بدعوى الخوف على «الهند» من السقوط بأيدي الترك !

١٠ـ بقيادة الجنرال «مود» الذي استطاع ما عجز عنه «طاوزند» فاحتل «بغداد» في آذار عام ١٩١٧ ٠



الجيش البريطاني يدخل بغداد من باب المعظم في ١١ آذار ١٩١٧ .

٢

امـير البيـــان

من المتفق عليه ان هناك شبه اهمال للشخصيات القومية والوطنية العربية التي ضحت بكل شيء من اجل تحقيق حرية الامة واستقلالها ووحدتها ، وباستثناء بعض الاسماء القليلة التي نالت الانصاف مؤخرا مثل «عمر المختار» و «عبدالقادر الجزائري» و «صلاح الدين الصباغ» و «عبدالقادر الحسيني» فان هذه الحقيقة تنطبق على البقية .

ولو انك وجهت سؤالا ، ليس للمواطن الاعتيادي ، بل للعديد من مثقفينا الذين يحملون اعلى الشهادات ، عن «عز الدين القسام» الذي يحمل لقب «شيخ شهداء فلسطين» وهو شخصية تكاد ان تدخل باب الاساطير في التاريخ العربي والفلسطيني ويكفي القول أنه كان اول من حمل السلاح وتوجه من مسجد «حيفا» حيث كان اماما له الى ميدان القتال ضد الانكليز والصهاينة بداية ثورة ١٩٣٦ وكان اول شهيد ينال هذا الشرف فيها .

من اسرة عريقة

ومما لاريب فيه ، والحالة هذه ، ان القارىء يوافقني على أن التصدي للحديث عن سيرة «امير البيان»[١] الذي جاء لقبه من سلاسة اسلوبه ورقته ومن عمقه ايضا ليس بالامر السهل الامر الذي يستحق كل من بذل جهدا في سبيل التعريف به كل ثناء واستحسان .

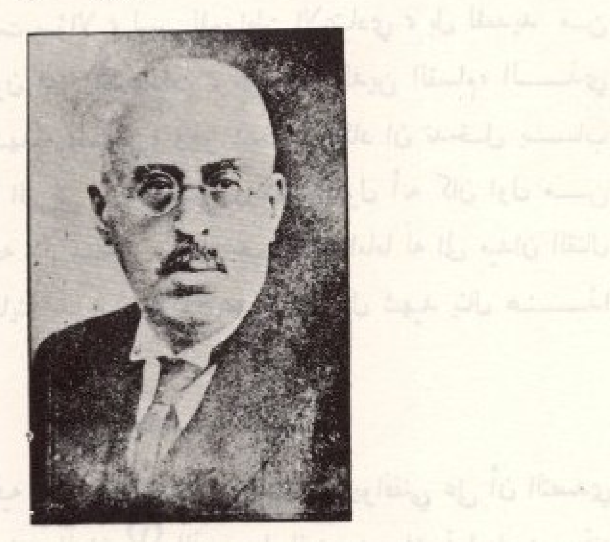
---

١ ـ شكيب ارسلان .

لم يكن «شكيب» من اسرة فقيرة او حتى متوسطة الحال ، فهو ينتمي الى عائلة عريقة بالغة الثراء في بلدة «حوران» السورية • ولد بلبنان عام ١٨٩٦ في قرية «الشويفات» القريبة وتعلم بمدرسة الحكمة واقام بمصر والاستانة (اسطنبول) ثم عين عضوا في مجلس «المبعوثان» العثماني نائبا عن «سوريا»[٢] •

يرافق الامبراطور

وصادف ان كان «ارسلان» في زيارة لدمشق ، فاقترح عليه المسؤولون مرافقة الامبراطور الالمان «ويلهيلم الثاني»[٣] اثناء جولته في



شكيب ارسلان

٢ ـ او بلاد الشام وكانت تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن آنـذاك •

٣ ـ ويلفظ «غليوم» لدى بعض الكتاب •

الاراضي المقدسة عام ١٩١٣[٤] وذلك لأتقانه الالمانية (الى جانب الانكليزية والتركية) فوافق على ذلك ، وعاد معه الى «اسطنبول» فازدادت مكانتـــه وتعززت هيبته بين الناس .

وتقول المصادر التاريخية انه ظل في «دمشق» طوال سنوات الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨) قبل توجهه الى «برلين» بعد ان خابت آماله اثر تعرض العرب الى خداع الحلفاء . وفي الاخيرة اخذ يدعو الى الوحدة العربيـــة لانها ركن هام في عزة العرب والمسلمين . وفيها ارسل اليه «فيصل الاول» يشكره ويذكر اياديه بعد ان سقط عرشه في العاصمة السورية وفي ذلـك يقـــول :

«فانه ما سقط من عرشه في دمشق حتى ارسل الي بمكاني في برلين رسالة تدل على منتهى الثقة ومزيد من الاعتقاد باخلاصي للقضية العربيـــة وافضى الي بأسرار لا يفضي بها الى اعز الناس اليه . وبعد سنوات جاءني منه كتاب هو عندي يقول لي فيه : اشهد بانك اول من تكلم معي مـــن العرب في قضية الوحدة العربية .»

ثنـــاء

وقد توطدت الصداقة بين «شكيب» و «الملك فيصل الاول» بعد ذلك في اوربا حتى آخر ايام اقامته[٥] فرافقه وصحبه في اشد ايامه حلكة وتعباه

٤ - اي قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى بوقت قصير .

٥ - يبدو أن هذه الصداقة توطدت اثناء وجود الملك في العاصمة الفرنسية «باريس» عام ١٩١٩ لحضور مؤتمر الصلح بين الحلفاء ودول الوسط (خاصة المانيا) وعرض القضية العربية عليه .

وشهد هاشم الاتاسي (٦) بذلك فقال : «وكان المرحوم جلالة الملك فيصل يذكره بالخير واذا ذكر امامه يطريه ويثني عليه ويقول ليس لمجاهد عربي فضل الا وله مثله عليه ، لئن جاهدنا بسيوفنا فقد جاهد بقلمه بما لا يقل تأثيرا عن فعل تلك السيوف» .



فيصل الاول

---

٦ ـ احد رؤساء الجمهورية السورية بعد الاستقلال .

ومن الواضح ان امير البيان لم يمكث طويلا في العاصمة الالمانية ، لذا آثر الانتقال الى «جنيف» التي كانت مسرحا افضل لخدمة القضايا العربية اذ كانت «برلين» تعاني من اضطرابات سياسية • ولم تكن السلطات السويسرية راغبة في التدخل في شؤون المقيمين في بلادها طالما التزموا بقوانينها • ومن العوامل الاخرى ان «جنيف» صارت مقرا لعصبة الامم التي قامت بعد الحرب مما دفع الزعماء العرب الى التوافد عليها لعرض قضايا بلادهم او للاتصال بساسة الدول الاخرى •

محاولة

وفي عام ١٩٢١ حاول «شكيب» ان يتفاهم مع المسؤولين في ايطاليا لتأييد العرب ضد المحتلين لبلادهم ولا سيما «فرنسا» • وقد اشترك معه في هذه المحاولة «محمد رضا» صاحب جريدة «المنار» حتى انه اجتمع مع «موسوليني» وكان يومها رئيسا للحزب الفاشي[٧] ، ولكن «رشيد رضا» الاديب السوري كان قد سبقه في الاتصال بالحكومة الايطالية ذاتها لجعلها تسير مع العرب سيرة تخالف سيرة «انكلترا» و «فرنسا» وكان هذا الاتصال سنة ١٩٢١ ومع هذا كان «رشيد» غير مطمئن الى النتيجة تماما لما لعلمه من شدة ميل رجال «ايطاليا» الى الاستعمار وتشددهم في معاملة اهل البلاد •

---

٧ ـ استولى على السلطة في ايطاليا بالقوة عام ١٩٢٣ اثر زحف اعوانه المعروفين باسم «اصحاب القمصان السوداء» على «روما» وهو على رأسهم وارغموا الملك «فكتور عمانوئيل» على الاستجابة لمطالبهم •

التجاوز عما سلف

وكان «شكيب» يحاول من خلال نشاطه هذا ان يكسب احدى الدول الكبرى الى جانب القضية العربية حتى تستطيع ان تأخذ ابعادها في الاوساط الدولية والعالمية ، وقد تجلى تبرير ذلك في مقالة نشرها في مجلة «الفتح» جاء فيها : «صرحنا من قديم الزمان باننا اصحاب سياسة عملية ولا يهمنا الشهرة ولا نقصد التهويش حتى يقال عنا اننا مخلصون ».

«فالسياسة العربية العملية التي هي رائدنا قضت علينا ان نتفاهم مع زعيم دولة عظمى له ما له من النفوذ في العالم وان نتلو قوله تعالى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) وأية دولة من الدول مدت الينا يد المساعدة وعاملتنا نحن العرب وعامة المسلمين بالانصاف والمساواة وكفت عما تسلكه نحونا من الشطط والاعتساف فاننا حاضرون للتفاهم معها والتجاوز عما سلف [8] منها . لان السياسة كلها هي عبارة عن تبادل المنافع بين الامم ».

ابرز الوجوه

في عام ١٩٢٢ تألف الوفد السوري ـ الفلسطيني وذلك للدفاع عن قضايا العرب وحقوقهم امام العصبة . ويقول الحاج «امين الحسيني» مفتي فلسطين ، فيما بعد ، والذي كان عضوا في الوفد :

«وكان شكيب ارسلان ابرز وجوه الوفد لاتقانه لغتين اوربيتين وغزارة علمه وقدرته على طرح ما يريد بسهولة ويسر . زار اكثر مدن اوربا

---

٨ ـ يقصد غدر الحلفاء بالعرب وتخليصهم عن وعدهم بالاستقلال بموجب رسائل «مكماهون» الشهيرة لشريف مكة «حسين» قبل اندلاع الثورة العربية في الحجاز عام ١٩١٦ .

وامريكا ، وفي كل رحلة كان يطلع بمقال او رسالة أو بحث ، مثلما فعل في الاندلس • تحمس للسياسة الاسلامية والعربية وعالج القضايا المتعلقة بهذه السياسة في اكثر من مناسبة •»



امين الحسيني

اتفاق وغدر

في غضون ذلك ، عادت الثورة الليبية الى الاندلاع ضد الاستعمار الايطالي الذي حاول غزو «ليبيا» ابتداء من عام ١٩١١ ، ومع ان الطليان تمكنوا من تحقيق تفوق في المناطق الساحلية نظرا لكثرة عدد جيوشهم وامتلاكهم احدث انواع الأسلحة المعدات والخبرة الحربية التي اكتسبوها من الحرب العالمية الاولى ، الا ان ذلك لم يحقق النصر النهائي •

وبعد ان اتضح عجز الايطاليين ، أرادوا التفاوض مع الشهيد «عمر المختار» قائد الثورة ، فلم يجدوا وسيطا افضل من «شكيب» الذي كانت تربطه صلة مباشرة «بالمختار» كما انه حاز على ثقته بما كان ينشره في صحفه وادبياته عن الثورة كما سنأتي على ذلك •

وصل «ارسلان» بصحبة الوفد الايطالي برئاسة المرشال «بادوليو» القائد العام حيث تم التوصل الى اتفاق من عدة نقاط منها :

اولا : عقد عفو عام للمتهمين بجرائم سياسية سواء كانوا في الداخل او الخارج •

ثانيا : سحب الحاميات الامامية المؤسسة سنة ١٣٤١ هـ الموافق ١٩٢٣ م ومن ضمنها حاميات جغبوب وجالو •[٩]

ويقول «المختار» في رسالة منه الى احدى الصحف المصرية : «وذهبت هذه الوعود ادراج الرياح ، فالحاكم العام ، بادوليو» توجه الى روما في اجازة لاجراء الاستشارات ، وفجأة عاد وهو يدق طبول الحرب•

---

٩ ـ من واحات الصحراء الغربية •



عمـــر المختـار

الله اكبـــر

بعد ان انتهت المحادثات الليبية ـ الايطالية الى الفشل ، قرر امـــير البيان ان افضل مكان لاستئناف جهاده هو «جنيف» حيث يتمتع باحترام تام من قبل الحكومة السويسرية وثقة مطلقة من جانب المهاجرين العـــرب في «سويسرا» وخارجها حتى ان شهرته عمت البلاد العربية وتجاوزتها الـــى «الهند» و «ايران» و «افغانستان» وسائر ارجاء غربي القارة الســـوداء حيث اصدر مجلة «الدولة العربية» في «داكار» عاصمة اقليم «السنغال»[١٠] .

وقال في احد اعدادها عام ١٩٢٦ وهو يشير الضمائر لدعم المجاهدين الليبيين :

١٠ـ كان جزءا من المنطقة المعروفة باسم «افريقيا السوداء الفرنسية» .

الله اكبر تسفك الدماء ويعتدى على حرمات النساء وتهان المقدسات بدون حق •

الله اكبر تغتصب الاراضي وتنهب الاموال وتزهق الارواح ظلما وعدوانا •

الله اكبر يهان كتاب مقدس يؤمن به ٥٠٠ مليون مسلم في العالم ، هذا الكتاب الذي هو القرآن ••• كتابكم المقدس ايها المسلمون ••• يضحك على رسوله وعلى رسالته التي جاءت لخير البشرية منذ اربعة عشر قرنا ، هذا الرسول هو محمد بن عبدالله رسولكم أيها المؤمنون •

ومن الغريب ان نشاطه بلغ حدا قرر معه اداء فريضة الحج في نفس العام واخذ معه كمية كبيرة من اعداد المجلة اوصلها الى الحجاز ، بمعونة اخوانه من السنغاليين حيث وزعت على قاصدي بيت الله الحرام الذين قاموا بنقلها الى مختلف الاقطار العربية والاسلامية مما اثار ضجة كبرى في حينه •

ثورة في الريف

لم تكن مهام امير البيان السرية قد انتهت ، ففي عام ١٩٢٠ قامت في منطقة «الريف» وهي مقاطعة كائنة الى الشمال الشرقي من «المغرب» ومطلة على البحر المتوسط على مقربة من «الجزائر» ثورة غير متوقعة بقيادة الامير «عبدالكريم الخطابي» وذلك لاسباب عدة منها :

اولا : ان الريف منطقة جبلية شبه معزولة •

ثانيا : لم يتصور احد ان تبادر اسبانيا الى غزو المنطقة وهي عملية

ستكون باهظة التكاليف وعديمة الجدوى ومع ذلك اقدمت عليها علما بأن «الريف» ليس فيها من الثروات ما يستحق الاهتمام سوى احتمال وجود بعض المصادر الطبيعية .

باب المفاوضات

وعلى أية حال ، فبعد حرب كر وفر استمرت خمس سنوات ، تبين ان من الصعب للغاية التغلب على «عبدالكريم» وثوار «الريف» فلم يجد الاسبان بدا من فتح باب المفاوضات ، فاتجهت الانظار الى ارسلان الذي كان يتراسل مع الامير بانتظام ويتبادل معه الرأي والمشورة بواسطة موفدين ريفيين واوربيين بعد ان استطاع «عبدالكريم» اقامة ما يشبه المكتب السياسي في «جنيف» وغيرها .

وبالفعل استطاع «شكيب» تدبير لقاءات بين ممثلي الجانبين في «الجزيرة الخضراء» ومدينة «تطوان» وكادت الامور ان تصل الى نتيجة مرضية للطرفين لولا ان «فرنسا» التي كانت تسيطر على القسم الجنوبي من «المغرب» شعرت بان ذلك ليس من صالح مستقبل وجودها هناك ، فأوحت الى اسبانيا بأنها على أستعداد للقتال الى جانبها وبذلك اندلعت الحرب من جديد .

وفرة في الانتاج

بعد كل هذا ، كان المفروض في الرجل ان ينفض يديه من الامر دون ان يوجه احد اللوم له ، لكنه استمر في جهاده بكل الوسائل المتوفرة لديه خاصة قلمه الذي قال عنه فيصل : «لئن جاهدنا بسيوفنا فقد جاهد

بقلمه بما لا يقل تأثيرا عن فعل تلك السيوف »، ومن الواضح ان سبب الاصرار على السير في هذا الطريق الشائك يعود الى ايمان «ارسلان» بقدرة الامة العربية على المقاومة والبقاء .

وفي غضون اقامته وتجواله في الخارج وضع عدة مؤلفات منها «الرحلة الاندلسية» في عشرة مجلدات و «غزوات العرب في شمال فرنسا» و «رحلة الحجاز» و «رحلة الى المانيا» . وله دراسات عن ادباء اتصل بهم مثل «احمد شوقي» و «رشيد رضا» وله حول ادباء غربيين بعض الدراسة مثل «اناتول فرانس» . الف حول الشعر الجاهلي وقضية انتحاله وحول تاريخ العرب وانسابهم وعن «ابن خلدون» ومن اهم مؤلفاته تعليقاته الوفيرة على كتاب «حاضر الاسلام» الذي ألفه المستشرق الامريكي «ستودارد» وترجمه «عجاج نويهض» وكذلك مذكراته الخاصة . ترجم الى العربية «آخر بنو سراج» لشاتوبريان الفرنسي وعلق عليه ، وقد عرف بوفرة الكتابة والانتاج .

ما السبب ؟

ومن الواضح ان هذه السيرة الحافلة لابد وان تكون مرتبطة بعدد كبير من الاسرار وجوانب من الخفايا التي قد تكشف الايام قسما منها . ومن ذلك ان المفتي «الحسيني» بعد ان استطاع الخلاص باعجوبة من «فلسطين» و «لبنان» اثر فشل ثورة ١٩٣٦ لجأ الى «العراق» حيث كان نشاط المانيا على اشده لكسب ود العرب وذلك بضربها على الوتر الحساس وهو النكبات التي حلت بهم بفعل سياسات الدول الاوربية الاخرى .

ولغرض جس النبض ، وجه المفتي عام ١٩٤٠ رسالة الى «برلـين» مفاتحا اياها بانه على أستعداد لتقبل اية معونة تصل منها في حالة تمكنه مـن اشعال نار الثورة في «فلسطين» والاقطار المجاورة وذلك على «اساس اقامـة تحالف مستند على مبدأ الند للند •»

ومن ثم امكن ايصال الرسالة الى «ارسلان» الذي ظل مقيما فـي «جنيف» طوال سني الحرب[11] ، فاستطاع بما له من مكانة واحترام لدى الساسة الالمان نقل الرسالة الى «رينتروب» وزير الخارجية ، فكان ذلـك بداية لمراسلات واتصالات مكثفة سواء قبل ثورة مايس العراقيـة عـام ١٩٤١ او في غضونها وبعدها •

١١ـ عاد الى بلاده بعد الحرب وتوفي فيها عام ١٩٤٦ :

٣

العـريف الدكتـاتـور

في احد ايام عام ١٨٨٩ ولد في بلدة «براوناو» باعالي «النمسا» طفـل من اسرة متواضعة اذ كان والده ، وهو من اصل الماني ، موظفا صـغيرا بالكمارك النمساوية وقد قيض لهذا الطفل ان يلعب دورا هائلا ليس فـي بلاده واوربا وحدهما بل وفي تاريخ الجنس البشري بأسره .

درس «ادولف هتلر» في مدينة «ميونيخ» الالمانية ، وانتقل سـنة ١٩٠٧ الى العاصمة النمساوية «فينا» حيث رفض طلب التحاقه باكاديميـة الفنون ، وقضى بضعة اعوام في فقر مدقع وبدأت كراهيته العنيفة لليهـود في هذه الفترة انتقل «هتلر» عام ١٩١٣ الى «ميونيخ» مرة اخرى وانخرط في الجيش الالماني في الحرب العالمية الاولى ووصل الى رتبة عريف ومنح وسام الصليب الحديدي لشجاعته . وفي أواخر الحرب اصيب بالغـازات السامة وبقي بعض الوقت في المستشفى .

محاولـة انقـلاب

قرر العريف الشاب الاستقرار في «ميونيخ» حيث مارس رسم بعض اللوحات ومن ثم اتجه الى السياسة فقام مع بعض زملائه بتأسيس نـواة «حزب العمال الالماني الاشتراكي الوطني» الذي عرف ، فيما بعد ، باسم «الحزب النازي»[١] فأحسن هتلر تنظيمه ولقي تأييدا كبيرا من جانـب

---

١ ـ اتخذ الحزب الصليب المعقوف شعارا لـه .

المرشال «لودندورف»[٢] فكثر اتباعه خاصة بين العمال العاطلين • وعندما طرح الحزب شعار التوفيق بين هؤلاء وارباب العمل ، اخذ اصحاب الصناعات الذين كانوا يعانون من اثار سياسة الحلفاء تجاه المانيا المغلوبة على امرها بالانضمام الى مؤيدي «هتلر» ولكن بشكل تدريجي •

وعندما شعر الحزب بقوة عضلاته ، حاول ليلة ٨/٩ تشرين الثاني ١٩٢٣ احداث انقلاب في حكومة ولاية «بافاريا» المحلية انطلاقا من «حالة البيرة» التي مازالت قائمة في «ميونيخ» ، وتصدر المحاولة الانقلابية «لودندورف» و «هتلر» بيد أن الجيش البافاري تمكن من قمع الثورة فحكم على الاخير بالسجن خمس سنوات ، اما المرشال فلم يتعرض له احد•

كفاحي !

امضى العريف ثلاثة عشر شهرا وراء القضبان في قلعة «لاند زبيرغ» حيث كتب مؤلفه الشهير «كفاحي» الذي صار انجيل النازية • ساعد الكساد العالمي الهائل والازمات المالية الطاحنة على دخول الناس افواجا في الحزب «النازي» فقد عزا «هتلر» وداعيته الكبير «غوبلز» كل الكوارث التي حلت بالالمان الى معاهدة «فرساي» ووعدهم باقامة دولة عزيزة الجانب مرهوبة الكلمة ، ترتع في بحبوحة العيش والرخاء اذا ما قلدوه في الانتخابات زمام الحكم • وهنا نال دعما سريا من جانب بعض كبار رجال الصناعة الالمان ، لكي يستخدموه اداة للوصول الى اغراضهم الشخصية •

---

٢ ـ احد ابطال المانيا في غضون الحرب العالمية الاولى ويأتي مقامه بعد المرشال «هندنبرغ» مباشرة •

ورغم هزيمة «هتلر» في الانتخاب الذي جرى لاختيار رئيس الجمهورية عام ١٩٣٢ اذ وقع الخيار على «هندنبرغ» الا ان حزبه صار اكبر الاحزاب في البرلمان المسمى «الرايخشتاغ» بالالمانية ، فما كان ذلك الا بداية لمناورات اسفرت عن تعيينه بمركز المستشار او رئيس الوزراء في واقع الحال •

رفض قاطع

يقول «فون بابن»[٣] الذي كان يشغل مركز المستشار قبل يوم الثلاثين من كانون الثاني ١٩٣٣ عندما استلم «الحزب النازي» السلطة بان المرشال العجوز اصر على الرفض القاطع لتكليف «هتلر» باشغال المستشارية رغم ان حزبه نال اكبر نسبة من المقاعد في «الرايخشتاغ» من بين سائر الاحزاب •

«وكان من من رأي – هندنبرغ – ان من المستحيل عليه ان يقوم بتكليف – عريف سابق – بمنصب مرموق مثل مستشارية الرايخ الثاني[٤] حتى ولو كان قد نال تلك النسبة العالية من الاصوات • وقال المرشال انه مستعد لقبول ترشيح شخصية اخرى من نفس الحزب او من ائتلاف عام يضم الاغلبية في البرلمان •»[٥]

---

٣ – اصبح سفيرا لالمانيا في تركيا قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ولعب دورا بارزا في الاتصالات بين القوميين العرب والساسة الالمان (راجع كتابنا اسرار عراقية) •

٤ – اسم اطلق على الدولة بعد عام ١٩١٨ واعقبه «الرايخ الثالث» الذي قام هتلر بتأسيسه •

٥ – Papen, Von, Memoirs, pp. 516.

وتراجـــع

وهنا بدأت «المناورات الساخنة» فقد اخذ رجـال الصناعـة بالاتصال مع «بابن» و «فريدريتش» نجل رئيس الجمهورية بهدف اقناع الاخير ان الدمار ينتظر «المانيا» اذا ما قيض للخصوم ان يستغلوا الفراغ الذي قد يعقب رفضه لاناطة مركز المستشارية «بالعريف» بالذات .

بعد ذلك ، قام هؤلاء باخبار «هتلر» بان «هندنبرغ» اصبح عـــلى استعداد لاستقباله في الساعة العاشرة من مساء الثلاثين من كانون الثاني في قصر الرئاسة بشارع «انتر دين لندن» الشهير في قلب «برلين» فما كان من زعيم «الحزب النازي» الا أن امر باعداد فرق الشباب في الحركة بالاستعداد لاقامة استعراض النصر على ضوء الشموع ووقع خطوات الاوزة بعـــد خروجه من المقابلة مباشرة .(٦)

حتى الصباح

وبالنسبة الى كبار قادة الحزب من امثال «غوبـلز» و «هملـــــر» و «ريبنتروب» و «هيس» و «بورمان» و «غورينغ» فقد احتشدوا مع حرسهم الخاص في فندق «اكسيسيليور» المقابل لقصر الرئاسة . وبعد مقابلـــة قصيرة مع «هندنبرغ» حضرها «بابن» و «فريدرتيش» تمـت تسمية «هتلر» للمركز المطلوب فغادر قصر الرئاسة الى الفندق لابلاغ اعوانه بالشروع في تنفيذ «استعراض النصر» .

تلك الليلة لم تعرف «برلين» طعم النوم حتى اشرقت شمس الصباح ؛

---

٦ — لم يكن «المرشال» و «العريف» قد اجتمعا قبل ذلك مطلقا .

فقد شرعت الطوابير بالزحف عبر شوارع «برلين» نحو «انتردين لنـــدن» وهي توجه التحية الى «ادولف هتلر» واعوانه كانوا يقفون في شرفة الفندق الرئيسة ليتمتعوا بثمار فوز كفاح استمر اكثر من عشر سنوات .



هتلر يستعرض قوات الحزب النازي في برلين ليلة استلامه السلطة .

الفـوهـرر .

كانت تلك بداية لاقامة دكتاتورية صارمة ، شن فيها «هتلر» حربـــا عنيفة على خصومه ووضع «المانيا» وجميع مرافقها وهيئاتها تحت اشرافــه الشخصي واقام معسكرات الاعتقال التي زج فيها بكل من أثار شبهاته مـن خصومه . وبعد وفاة «هندنبرغ» في العام التالي أيدت انتخابات ١٩٣٤ توحيد رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء في شخص هتلر الذي صار يحمل لقب

«الزعيم» .(٧)

قادت سياسة «الفوهرر» الى الحرب العالمية الثانيــة (١٩٣٩-١٩٤٥) ولقيت هذه السياسة تشجيعا من جانب الحكومة البريطانية في بادىء الامر؛ فقد عقدت هذه الحكومة معه اتفاقية (٨) نقضت احكام «معاهدة فرساي»، وتساهلت معه في شأن اعادة تسليح منطقة الراين ، وغضت الطرف عن ضمه «النمسا» ثم «تشيكوسلوفاكيا» بيد ان هذا لم يمنع «هتلر» من اعلان الحرب عــلى «بولندا» في اول ايلول ١٩٣٩ .

نتائج وخيمـة

وسرعان ما اندلعت السنة النيران في القارة الاوربية ، وخاصة عندمــا دخلت «المانيا» اتون الحرب ضد الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٤١ ، دون الاعلان عن قيامها رسميا ، فنصب «هتلر» نفسه قائدا للجيش الالماني مــما ادى الى نتائج وخيمة اسفرت عن تآمر بعض كبار ضباط الجيش على اغتياله بوضع قنبلة ، او بالاحرى حقيبة مليئة بالقنابل تحت طاولة المؤتمرات العسكرية في احدى مناطق «بروسيا» في ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ ، ولكن المؤامرة قمعت بصرامة بالغة على يد هملر قائد الشرطـة الاكبر والمعروفـة باســم «الغستابو» .

---

٧ ـ «الفوهرر» بالالمانية .

٨ ـ عرفت باسم اتفاقية «ميونيخ» والتي عقدت بين «هتلر» و «موسوليني» من جهة و «شامبرلين» البريطاني و «دیلادییه» الفرنسي من جهــة اخــرى .

كانت سنة ١٩٤٥ نقطة النهاية للرايخ الثالث و «الفوهرر» واعوانه ، فقد اطبق الحلفاء الغربيون على المانيا من جناحها الغربي ولم تنفع محاولات «المانيا» المستميتة في شن هجوم بمنطقة «الاردين» بينها وبين «بلجيكا» في تغيير الموقف • اما الاتحاد السوفيتي فقد استمر في الضغط قدما الى ان استطاع الوصول الى «برلين» في نيسان تلك السنة وتطويقها كاملة اواخر الشهر واحتلالها بشكل نهائي وبذلك انتهت الدولة الالمانية واختفت من الوجود[9] •

سم ورصاص

من الطبيعي ان القارىء يود معرفة ما آل اليه مصير قادة «الرايخ الثالث» فعندما اوشك الجيش الاحمر على الاحداق بالعاصمة ، قال القادة العسكريون والسياسيون «لهتلر» ان واجبه يحتم عليه ترك «برلين» الى مكان اكثر أمنا حيث يستطيع مواصلة القيادة السياسية والعسكرية للدولة[10] بيد انه قابل ذلك بالرفض المطلق رغم علمه بالنتيجة المحتمة •

في الساعات الاولى لليوم الثلاثين من نيسان ، كانت قذائف المدفعية والدبابات السوفيتية تنهمر على قصر المستشارية ، فيما خلد «هتلر» ومعه كل من نائبه «بورمان» ووزير الدعاية «غوبلز» وافراد عائلته وبعض المرافقين الى الهدوء في اقبية القصر بانتظار القرار النهائي • وعند الظهر

---

٩ ـ تحولت الان الى دولتين هما :
١ ـ جمهورية المانيا الاتحادية (الغربية)
٢ ـ جمهورية المانيا الديمقراطية (الشرقية) •

١٠ ـ يقال انه تم اعداد مخبأ تحت الارض لهذا الغرض في احدى غابات ولاية «بافاريا» •

اعلن «الفوهرر» انه سيبادر الى الانتحار مع عشيقته «ايفا براون» التي كان قد عقد قرانه عليها ذلك اليوم • ومن ثم ادلى بوصيته التي قال فيها انه باعتباره قائد الدولة الالمانية فلن يبادر الى الفرار وانه اختار مصيره بنفسه تشاركه في ذلك زوجته «حتى لا نقع اسرى بايدي الاعداء •»(١١)

عندما اقترب المساء ، سمع المرافقون صوت اطلاقة نارية من غرفة «هتلر» الخاصة فهرعوا ليروه راقدا على أريكة وقد تدفق الدم من فمه بينما ملأت رائحة الرصاص الغرفة ، اما «ايفا براون» فقد استلقت على اريكة اخرى وهي ميتة بفعل السم • وبعد ذلك جرى لف الجثتين ، بناء على الوصية ، في بطانية واحدة وأحرقا خارج القبو دون ان يتعرف احد على بقاياهما حتى الآن •

بورمان

بعد ان تأكد نائب الفوهرر من امر انتحار «هتلر» قرر ترك برلين الى الغرب قبل ان تستكمل القوات السوفيتية حصارها للمدينة • ويقال بأنه سار في اعقاب دبابة المانية كانت سائرة في نفس الاتجاه ، ومنذ ذلك الحين لم يسمع احد او يقرأ عنه شيئا •

غوبلز

ظل اعظم داعية في التاريخ بعد «لينين» في قبو قصر المستشارية مع زوجته واطفالهما الستة الى ان تم تنفيذ توصية «هتلر» • وبعد محاولات

١١ـ John, Wimpey, Hitler, p. 336.

فاشلة للاتصال بالقادة العسكريين للقوات السوفيتية ، قــرر «غوبلــز» الانتحار .

وكان قد اعد ، مسبقا ، بضع جرع سامة لهذا الغرض . وهكــذا ، وفي ساعة متأخرة من نفس مساء ذلك اليوم ، ابتلع الاطفال الجرع ممزوجة بنوع من الحلويات فلقوا حتفهم في الحال واعقبتهم والدتهم ثم «غوبلــز» نفســه .

هملــر

مع كل هذه الكوارث ، لم يتطرق اليأس الى قلب «هينريش هملر» قائد فرق الشرطة السرية المعروفة باسم «الأس أس» . فبعد التأكد من ان «هتلر» قرر عدم مغادرة «برلين» التي اوشكت على التعرض للحصار التام والاحتلال من جانب السوفيت ، وجه برقية الى «الفوهرر» مفادها انه لمــا اصبح الاخير غير قادر على ادارة شؤون الدولة الالمانية ، فانه يريد تفويضه للقيام بذلك .

هنا ثارت ثائرة «هتلر» فاصدر أمرا برقيا يقضي بما يلي :

اولا : اقصاء هملر من جميع مناصبه الرسمية والحزبية .

ثانيا : منح الجهات المسؤولة صلاحية القاء القبض عليــه وتنفيـذ حكـم الاعدام الصادر بحقه من جانب الفوهرر .

وعلى أية حال ، لم يقيض لأي من القرارين المذكورين التنفيــذ ، ففي الثاني من مايس ١٩٤٥ قرر «هملر» التوجه الى القيادة البريطانيــة في ميناء «هامبورغ» للتفاوض بشأن استلامه زعامة «الرايخ الثالث» فما كان

من الانكليز الا ان قرروا القاء القبض عليه تمهيدا لتقديمه الى محاكمة مجرمي الحرب . وعند باب القيادة ابتلع «هملر» عبوة سامة قضت على حياته في الحال .

ريبنتروب

شغل عدة مناصب في الدولة كان ابرزها سفير «المانيا» لدى «بلاط سانت جيمس» في بريطانيا ومن ثم اصبح وزيرا للخارجية خلفا للهر «فون نوراث» عام ١٩٣٨ .

وفي عهده تمت كل العمليات الخارجية التي أشرنا اليها ، وهكذا تم اعتقاله في السادس من مايس وقدم الى المحاكمة في «نورمبرغ» مع زملائه فصدر الحكم عليه شنقا ونفذ ذلك في تشرين الاول سنة ١٩٤٦ .

اما «هيس» والبقية فسيكون لنا عنهم حديث اخر .

٤

انقـــلاب وانتقـــام

في ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦ ، وقع اول انقلاب عسكري في تاريـخ العراق والعرب الحديث بقيادة الفريق «بكر صدقي» قائد الفرقة الثانيـة ووكيل رئيس اركان الجيش «طه الهاشمي» الذي كان في اجازة خـارج العراق •

ولقد ترتبت على الانقلاب عدة نتائج منها : اغتيال «جعفر العسكري» وزير الدفاع في حكومة «ياسين الهاشمي» وصهر «نوري السعيد» وصديقه وحليفه السياسي الاول واسقاط وزارة «ياسين» وتشريدهما مع عدد من كبار الساسة خارج البلاد بعد ان تبين ان «بكرا» ينوي القضاء على حياتهم جميعا •

وقتـــل بكـــر

تألفت الحكومة الجديدة مساء يوم نجاح الانقلاب برئاسة السياسي المخضرم «حكمت سليمان» وان اصبحت السلطة ، في واقع الامر ، بأيدي «بكر» • اما «ياسين» فقد غادر العراق ومعه «الكيلاني» الى «دمشق» ومنها الى بيروت • ولم يلبث «الهاشمي» ان توفي كمدا في الاخيرة بعد اسابيـع قليلة بينما غادرها «الكيلاني» الى تركيا •



جعفر العسكري

اما «السعيد» فقد نقلته طائرة عسكرية بريطانية ومعه افراد عائلته الى «القاهرة» حيث ظل لاجئا هناك بانتظار تطور الاحداث وان لم يبتعد عن تحديد بعض مساراتها • ومن ذلك ما قالته بعض المصادر انه كان ساخطا اشد السخط على الملك «غازي» لاعتقاده انه كان ضالعا في عملية الانقلاب التي اودت بحياة «جعفر» وانه كان متطلعا الى الانتقام منه ، ويقال ايضا انه اتصل بالملك «عبدالعزيز السعود» عارضا عليه ترشيح احد انجاله لعرش «العراق» بعد التخلص من «غازي» •

في ١١ اب ١٩٣٧ قتل «بكر صدقي» في مطار الموصل العسكري اثناء توجهه الى «تركيا» في رحلة لحضور المناورات السنوية للجيش التركي[١] • ورغم محاولة «حكمت» البقاء في السلطة على اساس ان حادث القتل كان مسألة فردية الا انه وجد نفسه مضطرا الى الاستقالة بعد ايام قلائل •

محاولة اسدال الستار

وكان «جميل المدفعي» من رؤساء الوزارات السابقين قد اضطر هو الاخر الى التوجه الى «الشام» خوفا من بطش «بكر» وذلك بعد التصريحات العنيفة التي ادلى بها في مجلس النواب تنديدا بسياسة الحكومة الانقلابية فلما قتل الاخير وشعر «حكمت» بضعف موقف حكومته ، ابرق الى

---

١ ـ كان «عبداللطيف نوري» قائد الفرقة الاولى والذي شارك في تنفيذ الانقلاب قد اصبح وزيرا للدفاع في الحكومة السليمانية ، فلما قتل «بكر» وهو رئيس اركان الجيش عهد الى الاول بالمركز الاخير فظلت الدفاع شاغرة •

«المدفعي» يدعوه للعودة الى «بغداد» لاشغال مركز وزير الدفاع[٢] .

ونتيجة لمبادرة حامية «الموصل» الى العصيان على الحكومة المركزية ورفضها اطاعة أوامرها وتسليم المتهمين باغتيال «صدقي» وانضمام حامية معسكر «الوشاش» اليها ، فقد وجد «حكمت» نفسه ملزما بالاستقالة ، وهكذا وجد «المدفعي» نفسه مكلفا بتأليف حكومة جديدة .

ولما لم يكن هذا طرفا مباشرا في النزاع ، وان كان حانقا على «حكمت» لاشتراكه في مؤامرات عشائرية ضده في الماضي ، فانه آثر اتباع سياسة «اسدال الستار على الماضي». خاصة وان الحكومة السابقة كانت قد استصدرت قانونا بالعفو عن القائمين بالحركة الانقلابية . اما «حكمت» فقد بقي في «بغداد» وكذلك سائر الذين ظلوا على قيد الحياة من رجال الانقلاب خاصة وان ما شجعه على ذلك ان صلاته وزياراته للملك «غازي» لم تنقطع .

انقلاب جديد

ورغم معارضة «المدفعي» لعودة «السعيد» الى العراق الا ان الاخير استطاع بدعم من بعض كبار ضباط الجيش ، خاصة العقداء الاربعة «صلاح الدين الصباغ» و «فهمي سعيد» و «محمود سلمان» و «كامل شبيب» ان يستقر في «بغداد» . ولم يكتف بذلك فقد بادر الى تدبير انقلاب عسكري في ساعة متأخرة من مساء ٢٤ كانون الاول اسفر عن الاطاحة بوزارة «المدفعي» وتكليفه شخصيا بتولى مسؤولية الحكم رغم معارضة الملك الشديدة وذلك خوفا من انتقام «السعيد» منه .

---

٢ ـ استهدف الانقلاب الثاني أن يكون «الهاشمي» رئيسا للوزراء بيد انه رفض ذلك .

ومن الطبيعي ان «حكمت» واعوانه قد شعروا منذ اللحظة الاولى لنجاح الانقلاب الجديد بالخطر على مستقبلهم وحتى حياتهم بالذات . وعندما علم «نوري» بطريقة ما بان «حكمت» ينوي السفر الى «تركيا» بادر الى تطمينه بان ارسل اليه ولده «صباح» وصديقه الدكتور «سامي شوكت» لاخباره بانه لا خطر على حياته وان رئيس الوزراء الجديد لا يضمر له شرا ، نقرر عندئذ صرف النظر عن فكرة السفر ، وكانت تلك غلطة الشاطر كما يقال !

مؤامرة متقنة

فالذي حدث بعد ذلك لم يكن في حسبان احد، اذ يقول العقيد «الصباغ» ما يلي : قصدت رئيس اركان الجيش ذات يوم لاقدم له بعض المعاملات



حكمت سليمان

بصفتي معاونا له فوجدته في حديث مع محمود سلمان (آمر كتيبة الهاشمي يومئذ) والمقدم الركن توفيق حسين يصغي اليهما ، فاعرضت عنهم وعدت ادراجي . وبعد نصف ساعة ناداني رئيس اركان الجيش الفريق حسين فوزي ونادى توفيق حسين معي وقال لي :

ـ اخبرني محمود سلمان ان حكمت سليمان رئيس الوزراء السابق وجماعته من اعوان بكر صدقي قد دبروا مؤامرة لاغتيال عدد من الشخصيات العسكرية والمدنية والعودة الى الحكم .

فسألته : كيف علم محمود بالامر ومن المقصودون بالمؤامرة ؟

اجاب : ان الذي اخبر محمود سلمان بالامر هو الامير عبدالاله بالذات ، كما انه اخبر وزير الدفاع (طه الهاشمي)[٣] ايضا» . اما الذين تستهدفهم المؤامرة فلا اعرفهم لذلك قررنا الاتصال بالامير للوقوف على جلية الامر .»[٤]

العصبة الاثيمة

ويبدو من سير الوقائع التاريخية ان «المؤامرة» قد رتبت باتقان بين «السعيد» و «عبد الاله» لتحقيق عدة اهداف :

اولا : الانتقام من قتلة «العسكري» سواء الذين قاموا بتنفيذ العملية او الذين شاركوا في تدبير الانقلاب وعلى رأسهم «حكمت» بالذات .

ثانيا : اظهار «عبد الاله» بمظهر الحريص على حياة الملك الذي قيل

---

٣ ـ صلاح الدين الصباغ ، فرسان العروبة في العراق ص ٧٤ .
٤ ـ المصدر السابق ص ٧٥ .

في حينه بانه كان على رأس المستهدفين للقتل وتنصيب الامير وصيا على العرش بعد وفاته .

ثالثا : التمهيد لاغتيال «غازي» وبحيث يبدو «عبد الاله» بريئا من العملية على ضوء كشفه عن المؤامرة .

نعود الى الصباغ : «كلف الامير عبدالاله بان يبقى على اتصاله بالرئيس (النقيب) البيطري حلمي عبدالكريم الذي ذكر الامير في شهادته انه عرض عليه الاشتراك في المؤامرة واطلعه على اسماء بعض زملائه المتآمرين ولكنه اعتذر عن كتابة اسمائهم بخط يده .»[٥]

وفي ٦ اذار ، ١٩٣٩ ، فوجىء الناس باذاعة بيان رسمي بتوقيع «مدير الدعاية والنشر والاذاعة» يندد بما قامت به «العصبة الاثيمة» التي ظهر للخلق فسادها وان الحكومة اتخذت ما عليها من واجب «بايقاف المتهمين المتآمرين» واعقبت ذلك باعلان الاحكام العرفية في منطقة «معسكر الرشيد» وفي المحلات المجاورة لها .

احكام

وبعد ذلك ، صدرت ارادة ملكية بتأليف مجلس عرفي عسكري للنظر في القضية برئاسة العقيد «عزيز ياملكي» وعضوية المقدمين «سعيد يحيى الخياط» و«محمود حلمي» والحاكمين المدنيين «عبدالعزيز الخياط»[٦] و «معروف جياووك» . وبعد مرافعات عديدة استغرقت حوالي عشرة ايام ،

---

٥ ــ ولا يعرف لسبب في ذلك .
٦ ــ الملقب «عزيز الاعرج» .



بكر صدقي بين جمع من اعوانه في امسية رحيله الى تركيا بالقطار

في ظل مطلق من السرية ، اصدر المجلس حكمه في ١٦ اذار بالاعدام شنقا بحق كل من «حكمت سليمان» و «اسماعيل عباوي» وشقيقه «يونس عباوي» و «جواد حسين» و «حلمي عبدالكريم» وبالحبس لمدة سبع سنوات على «عبدالهادي كامل» ومدة ثماني سنوات بحق «علي غالب»[٧] وبراءة العقيد «شاكر الوادي» والزعيم «العميد» المتقاعد «اسماعيل الاغا» واحالة العقيد «صالح صائب الجبوري» على التقاعد .[٨]

وهنا يقول «الهاشمي» في مذكراته : «اجتمع مجلس الوزراء في دار نوري السعيد (١٧ اذار) وتذاكر حول احكام المجلس العرفي وكان رشيد عالي الكيلاني (رئيس الديوان الملكي) حاضرا وكان رأي ناجي شوكت (وزير الداخلية) ضد تنفذ الاعدام والا يستقيل وكذلك رأي محمود صبحي الدفتري (وزير العدلية) عدم التنفيذ» .[٩]



طـه الهاشمي

---

٧ ـ الملقب «بالاعرج ابن عريان» .

٨ ـ وهذه اول مرة في تاريخ العراق تصدر محكمة عسكرية قرارا باحالة ضابط في الجيش على التقاعد .

٩ ـ ناجي شوكت ، اوراق ناجي شوكت ، ص ٢٢٩ .

ولم يوضح صاحب المذكرات موقفه الشخصي من الموضوع وهذا أمر غريب للغاية .

رأي شوكت

ويقول «ناجي شوكت» ما يلي : «وقد دققت القرار الذي اصدره المجلس العرفي العسكري وادانة حكمت سليمان والحكم عليه بالاعدام ، فاتضح لي منه ومن التحقيقات التي اجرتها (مديرية التحقيقات الجنائية) ان القناعة بعيدة عن الحقيقة فليس هناك مؤامرة مدبرة ، وليس لحكمت سليمان دخل في مثل هذه المؤامرة المزعومة وليس هناك اي تصور او رغبة في القيام باي انقلاب ضد حكومة نوري السعيد لا من قريب ولا من بعيد .»

ويمضي في روايته عما حدث في مناقشات مجلس الوزراء : «وبعد اقل من نصف ساعة خرج نوري السعيد واخذني الى غرفة اخرى وبادرني بالقول : ان الاخوان وافقوا على تبديل عقوبة الاعدام الصادرة بحق حكمت سليمان الى السجن ، ويرجون موافقتك على تنفيذها في الاخرين . فقلت له : ان الدلائل ضعيفة بحق الجميع وان قصدك الانتقام من خصومك بطرق مشروعة وملتوية . ولهذا لا اوافق على شيء من ذلك . فقال ولم ذلك ؟ الم يكن اسماعيل توحلة قاتلا لجعفر العسكري ، لا يستحق هذا الرجل الشنق ؟

اجبته : لماذا لاتطلب من المجلس العرفي محاكمة ابن توحلة عن جريمة قتل جعفر !؟

حاول نوري ان يقنعني بطرقه المعروفة ووعوده المعسولة فلم يجد

مني الا الاصرار على قراري والتهديد بالاستقالة ، فلم ير مناصا من تخفيف احكام الاعدام الى السجن خشية الفضيحة ..»[10]

روايـــة السفير

اما السير «موريس بيترسون» السفير الانكليزي في العـــــراق آنذاك فيقول في مذكراته الموسومة «على جانبي الستار» ما يأتي : «ولقـد ادت مؤامرة صغيرة من جانب الجيش الى دفع نوري ، بعد اسابيع مـــن عودته لرئاسة الوزارة ، لان يوجه ضربة لاحد اعدائه القدامى . لقـد اقحم حكمت سليمان ، احد رؤساء الوزارات السابقين ، في المؤامرة بأتفه الادلة وحكم عليه بالموت فعلا . وبعد جدل طويل ، حصلت من نوري على تعهد بان الحكم لن ينفذ ...»[11]

ومهما يكن من امر ، فقد شعر «نوري» بأن الانشقاق الخطير الذي وقع في صفوف حكومته قد يؤدي الى تخليه عن الحكم مع احتمال عـــدم عودته الى السلطة ثانية بالسرعة المطلوبة ، سيما وان امامه عدة مهـــام ، اخطر من تلك القضية تتطلب الحل وفي مقدمتها تصفية الحساب مع الملك «غازي» الذي كان يثير الناس باذاعاته من «قصر الزهور» ضد «الانكليز» و «الفرنسيين» .

وعدا عن ذلك ، فان نذر الحرب العالمية الثانية باتت واضحة كـل الوضوح في الافق ، فكان لابد من تهيئة الامور نحو وضع «العـــراق» في

١٠ــ ص ١٣٢ .

١١ــ موريس بيترسون . جانبي الستار ، ص ٢٣٩ .

خدمة المجهود الحربي البريطاني بتطبيق معاهدة ١٩٣٠ التي عقدها «نوري» نفسه مع الانكليز •

وافلتوا

وهكذا ، ففي ١٨ اذار ، صدر من الاذاعة البيان الاتي نصه :

لقد ثبت لدى المجلس العرفي العسكري ، المنعقد في معسكر الرشيد ، بنتيجة التحقيقات التي اجراها منذ مدة ، بان الاشخاص التالية اسماؤهم ، قد قاموا بمؤامرة ضد سلامة الدولة ، ولذلك فقد اصدر احكامه الاتية بحقهم :

١ ـ حلمي عبدالكريم : الاعدام •

٢ ـ اسماعيل عباوي : الاعدام •

٣ ـ يونس عباوي : الاعدام •

٤ ـ جواد حسين : الاعدام •

٥ ـ حكمت سليمان : الاعدام •

٦ ـ عبدالهادي كامل : الاشغال الشاقة المؤقتة لمدة سبع سنوات •

٧ ـ علي غالب : الاشغال الشاقة المؤقتة لمدة ثماني سنوات ومراقبة الشرطة لمدة سنتين •

وبالنظر لوجود اسباب تستدعي الرأفة ، فقد ابدل حكم الاعدام الى الاشغال الشاقة والسجن •»[١٢]

١٢ـ جريدة «الزمان» البغدادية في ١٩ اذار ١٩٣٩ •

وتم اسدال الستار

ويلاحظ ان اسم البيطري «عبدالكريم» لم يرد في البيان الرسمي ، فتصور كثيرون ان حكم الاعدام سينفذ بحقه ، الا انه سرعان لما صدرت ارادة ملكية بتخفيض الحكم الى الاشغال الشاقة المؤبدة .

وهكذا سيق السبعة الى السجون ، وهناك اصيب «حكمت» بمرض السل ، ومع ذلك لم يطلق سراحه كما تقضي الاصول عند اصابة سجين ما بمرض لا يرجى الشفاء منه ، بل تقرر نقله الى سجن السليمانية وظل هناك الى ان استصدرت حكومة الدفاع الوطني التي تألفت برئاسة «الكيلاني» في نيسان ١٩٤١ ارادة ملكية بالافراج عنه وعن بقية المحكومين في القضية وبذلك اسدل الستار عليها .

٥

لورنس وتزييف التاريخ

ولد «توماس ادوارد» في ١٦ اب ١٨٨٨ في مقاطعة «ويلز» جنوب غربي انكلترا ، وكان والده نبيلا ايرلنديا اسمه «توماس روبرت تشابمان» وقد غير لقبه فيما بعد الى «لورنس» .

كان الوالد قد هجر زوجته وله منها اربعة اولاد وتزوج من «سارة مادن» وهي مربية اطفاله ، وكانت ثمرة ذلك خمسة اولاد (لورنس) هو الثاني وفي العاشرة كسرت رجله مما ترك اثره على نموه الجسدي ، وبعد انا كمل دراسته في جامعة «اوكسفورد» حصل على شهادة عليا في موضوع «القلاع الصليبية» .

دور كبير

وفي سنة ١٩٠٩ تعرف «لورنس» على الدكتور «هوغارت» وهو مؤلف ومؤرخ يتقن عدة لغات بينها العربية الا انه في الحقيقة احد كبار العاملين في المخابرات البريطانية . وقد لعب هذا الرجل دورا كبيرا في حياة «لورنس» وبدأ هذا الدور عندما ساعده الدكتور على الذهاب الى الشرق لدراسة القلاع الصليبية على الطبيعة .

تجول الفتى بين هذه القلاع ماشيا وراكبا ، وبعد ان ارسل عدة تقارير عنها الى صحيفة «صندي تلغراف» قضى فترة من الزمن في العمل

في مضمار البحث عن الاثار الاغريقية شرقي شبه جزيرة الاناضول .[1]

تزكيـــة

وعندما بادرت «بريطانيا» الى اجراء مسح للابار في شبه جزيـــرة «سيناء» كان «لورنس» من بين الذين ساهموا في ذلك . وقد تبـــين ، فيما بعد ، ان الهدف من المسح هو تمهيد الطريق نحو الزحف مـــن «مصر» الى الشرق اي باتجاه «فلسطين» وباقي بلاد «الشام» .[2]

ولعل الفترة التي قضاها «لورنس» من المسح بسيناء ، وبتزكية مـــن الدكتور «هوغارت» ايضا هي التي فتحت امامه سنة ١٩١٤ باب الحصول على رتبة ملازم ثان في القسم الجغرافي بهيئة اركان الحرب البريطانيـــة وتلك كانت بداية القصة المثيرة .

نشـــرة ســـرية

بدأت الحرب العالمية الاولى تلك السنة ومكتب المخابرات البريطانية في «مصر» ضعيف الى حد ما ، ولما كان المكتب لم يستكمل ابحاثه عن قوة الجيش التركي ، فقد كان من السهل ادخال «لورنس» كضابط في ذلـــك المكتب حيث اصبح همزة وصل بين مصلحة المساحة المصرية والمخابـــرات العسكرية .

وعندما وصل كل من «جورج لويد» و «كلايتـــون» و «داونـــي»

---

١ ـ وقد عملت معه المس «بيـــل» التـــي لعبت دورا بارزا في المنطقة بهذه الصفة ايضا .

٢ ـ وهذا ما تم فعلا في أواخر عام ١٩١٦ اي بعد اندلاع ثـــورة «الحجاز» بقيادة «حسين» شريف «مكة» .

و «ستورز» و «هوغارث» نفسه والمس «جيرترود بيل» الى القاهرة وتـم تأسيس ما اطلق عليه اسم «المكتب العربي» في شباط ١٩١٦ اصبح «لورنس» عضوا فيه • وكانت مهمة المكتب ، من الناحية الرسمية ، دراسة وتطوير السياسة البريطانية «فيما يختص بالشؤون العربية ، فضلا عن جمـع المعلومات •»

استـــاذ

اصبح «هوغارث» رئيسا للمكتب ، اما «لورنس» فكان عمله الاساس في البداية اعداد وطبع «النشرة العربية» وهي مطبوعة سرية يصدرهـا المكتب وتوزع على كبار المسؤولين ، وهنا اخذ الملازم الشاب ينشر القصص والاساطير حول اسمه وشخصه واعماله • ومن بين القصص التي رواهـا انه دبر عملية استسلام حامية «ارضروم» العثمانية للانكليز وانه وضـع خطة غزو «الاسكندرونة» •[٣]

وقبل دخول في تفاصيل الادعاءات التي نسبها «لورنس» لنفسه عن دوره في الثورة العربية في «الحجاز» ومن ثم في «بلاد الشام» نود القـول ان الفضل الاول في حصوله على الشهرة في هذا المجال يعود الى صحفـي امريكي يدعى «لويل توماس» وكان استاذا لفن التحقيق الصحفي في جامعة «برنستون» الامريكية المشهورة •

---

٣ ـ ميناء يقع على خليج يعرف نفس الاسم الى الشمال الشرقي مـن البحر الابيض المتوسط •



هوغارت مع لورنس في القاهرة عام ١٩١٦

وعندما ارادت حكومة الولايات المتحدة سنة ١٩١٧ خلق الاساطير حول المقاتلين البريطانيين لمقاومة الدعاية الالمانية ولتحريض الامريكان على زيادة المساهمة في المجهود الحربي ، طلبت السلطات المختصة من «توماس» ان يسافر مع المصور «تشيس» الى المنطقة للقيام بهذه المهمة .

حرب الصحراء

ويبدو ان الصحفي الامريكي كان على اطلاع على ما ينشره «لورنس» في الصحف البريطانية عن سير الثورة الحجازية ، فقرر التوجه الى ميناء العقبة الذي استولى عليه المقاتلون العرب . وهناك التقى مع «لورنس» وهو يرتدي زيا عربيا حيث القى على مسامعه مجموعة من القصص المثيرة ثم طلب منه مرافقته في جولة بالمنطقة حيث تم التقاط عدد من الصور والافلام عن «حرب الصحراء» حيث تركز الامر على دور «لورنس» فيها ، وعندما سأله الصحفي الامريكي ، وهذا مثبت في مذكرات الاخير ، عما اذا كانت اقواله صحيحة ، رد عليه «لورنس» بقوله : «هل التاريخ مبني على الحقائق ؟»

والواقع فان «لورنس» كان الشخص الضائع الذي يبحث عنه «توماس» ؟ فالحرب في الصحراء مملوءة على حد تعبيره بالفرسان العرب والجمال والنسوة المحجبات والمدن المقدسة وذلك ما يثير خيال القارىء الغربي المعتاد على وقائع اليوم .

الطرف الاساس

والان ، ما هي حقيقة «لورنس» بالثورة العربية ؟ وما هي حقيقة

الاعمال التي قام بها في تلك الثورة ؟ وهل صحيح انه لعب دورا بارزا في اشعال نار الثورة وفي العمليات التي نشبت في غضونها ؟

هناك مجموعة وقائع تلقي بعض الضوء على تلك المرحلة المثيرة المملوءة بالخيال والاساطير ؛ ومنها ان السير «رونالد ستورز» الذي اصبح حاكما على «القدس» بعد احتلالها هو الطرف البريطاني الاساس في المفاوضات مع الشريف وابنه الأمير «عبدالله» الذي كان بمثابة وزير خارجيته •

وقد بدأت هذه المفاوضات في نيسان سنة ١٩١٤ عندما ذهب الامير الى «القاهرة» وطلب من «ستورز» ١٢ مدفعا وهنا سأله الاخير : لماذا تريد المدافع ؟ قال الامير : لندافع بها عن انفسنا ضد الترك • لكن «ستورز» رفض في لعبة الدبلوماسية مع «عبدالله» ان يمده بالمدافع وقال «لا نستطيع اعطاء سلاح قد يستخدم ضد اصدقائنا» بيد ان وزير الحربية «كتشنر» عاد وطلب من «ستورز» ان يتصل ثانية بالامير ووالده بهدف التوصل الى اتفاق معهما •

من بعيد

ومن الثابت ، تاريخيا ، ان «مكماهون» المندوب السامي في «مصر»

هو الذي ادار المفاوضات من بعيد[٤] • وتشير الوقائع التي كشفتها وثائق وزارة الخارجية البريطانية نفسها الى ان اتفاقية «سايكس ـ بيكو» بين حكومتي «لندن» و «باريس» لاقتسام المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الاولى ، كانت قد ابرمت في الوقت نفسه الذي بذلت فيه الوعود البريطانية للشريف «حسين» •

هذا وقد ذكر «ستورز» في كتابه «مشرقيات» وهي مذكراته الشخصية انه عندما بدأت الثورة العربية في ٥ حزيران ١٩١٦ لم يكن «لورنس» قد وطىء ارض «الحجاز» بعد ، كما ان المرة الاولى التي سافر فيها الى هناك كانت في ١٢ تشرين الثاني ١٩١٦ وبرفقة «ستورز» بالذات •

وكانت تلك الرحلة المناسبة الاولى لعقد لقاء له مع الامير «فيصل» وحين رجع الى «القاهرة» وطلب منه «كلايتون» العودة الى «الحجاز» ليكون ضابط اتصال مع قوات الامير[٥] حاول ان يتملص من المهمة قائلا : «انني لست اهلا لذلك فضلا عن انني لست ضابطا محترفا ولا اتقن فن الحرب •» لكن «كلايتون» و «هوغارت» اصرا ، فغادر «لورنس» القاهرة الى «الحجاز» في اول مهمة له في الميدان منذ اصبح ضابطا في هيئة اركان الحرب •

---

٤ ـ يمكن العودة الى رسائله بهذا الشأن مع الشريف في شتى المصادر التاريخية •

٥ ـ كان «فيصل» نجل الشريف القائد العسكري لقوات الثورة الحجازية •



لـــورنس

وعـــد بلفـــور

كانت مهمة «لورنس» محددة وهي اقناع انصار الشريف حسين بالاستمرار في استخدام القوة لان ذلك هو السبيل الوحيد لضمان تنفيذ الوعود التي اعطاها مكماهون لهم .

بيد ان «كولين سمبسون» و «فيليب نايتلي» وهما صحفيان يعملان لحساب جريدة «صندي تايمز» استطاعا الحصول على عدد من الرسائل والمخطوطات المدونة بيد «لورنس» نفسه والمحفوظة في مكتبة «بودليان» بجامعة «اوكسفورد» والتي اشترط جامعوها ان لا توضع تحت تصرف الناس قبل سنة ٢٠٠٠ توصلا الى ما يلي :

«كانت للورنس مطامحه وافكاره الخاصة . كان يكره فرنسا ويحاول ابعادها عن المنطقة والغاء اتفاقية سايكس ـ بيكو . وكان طموحه اقامة اتحاد عربي ضمن الامبراطورية البريطانية . اما المال فكان يحلم ان يجيء به من اليهود ، لقاء تعهد العرب باحترام وعد بلفور!»[٦]

---

٦ ـ هو الوعد الذي اصدره وزير الخارجية البريطانية لليهود باقامة «وطن قومي لهم في فلسطين» .

٦

بدايــة ونهايــة

ارتفع نجم «نابليون بانابرت» الذي يعتبر اعظم الغزاة شهرة فـــي التاريخ الحديث ابتداء من عام ١٧٩٦ عندما اثبت فعالية المدفع ضد مثيري الاضطراب في «باريس» • وما ان حل عام ١٨٠٤ حتى اصبح امبراطـورا على فرنسا ، وفي غضون خمس سنوات اخرى استطاع الحاق الهزيمـــة بجميع ملوك القارة الاوربية غير ان انكلترا استطاعت ان تتحداه •

مقامرة هائلة

ولكن «نابليون» وسع من سلسلة فتوحاته اكثر مما يجب ، فثارت اسبانيا ضد السيطرة الفرنسية وارسلت بريطانيا قوة مساندة بقيادة الجنرال «آرثر ويسلي» وبحلول عام ١٨١٤ تمكن من الحاق الهزيمة بمرشـــال فرنسي بعد آخر ، فنال لقب «دون ولنغتون» •

وفي هذه الاثناء ، تعرض «نابليون» الى نكسة مريرة من جراء غـزوه لروسيا ، وبعد سنتين فقط ارغم على التوجه الى المنفى من جانب جيـوش «بروسيا» و «النمسا» و «روسيا» •

وهناك ، ومن منفاه في جزيرة «البا» في البحر المتوسط اخذ يعـــد الخطط لمغامرته الهائلة التي انتهت في «واترلو» بالخذلان التام •

كان «نابليون» في الرابعة والاربعين من العمر فقط عندما توجـه الى «البا» ومن الطبيعي انه لم يكن راغبا في تمضية وقته سدى هناك ، وذات مرة

قالت له والدته : «انك لم تخلق لتموت فوق هذه الجزيرة» .

قـــوة ضئيلة

استمر الامبراطور السابق في متابعة احوال فرنسا التي كانت تعاني من الفوضى والاضطراب في ظل «لويس الثامن عشر» الذي ينتمي الى اسرة «بوربون» . وكانت المشاعر المعادية للاخير تشتد يوما بعد اخر خاصة بين جنود «نابليون» السابقين الذين ابعد الكثير منهم عن الخدمة لقاء رواتب تقاعدية ضئيلة .

وبعد ان وصل «نابليون» الى الاستنتاج بان الجيش سيقاتل الى جانبه ، عاد ادراجه الى «فرنسا» . وفي الاول من اذار ، ١٨١٥ ، نزل فوق ساحل منطقة «الريفيرا» ومعه قوة ضئيلة لا تتجاوز اربعمائة رجل ، بيد ان فرنسا قابلته بالترحيب . وعندما كان يشق طريقه الى الريف صوب باريس ، استقبلته الجماهير بالهتاف عاليا «عاش الامبراطور !» وسرعان ما انتشر نبأ وصول «بونابرت» من «البا» فما كان من الملك الا ان بعث بقوات خاصة لايقافه عند حده او حتى اعدامه .

اطلقوا عليه النار !

وبينما كان الامبراطور السابق وجنوده يسيرون في احد الطرق ، وجدوا انفسهم وجها لوجه امام كتيبة من المشاة الملكية ، وعلى الرغم من ان افراد الفوج كانوا من جنود الملك لويس الثامن عشر ، الا ان كل واحد منهم ، تقريبا ، كان قد خاض احدى المعارك الى جانب «نابليون» في يوم

ما • وما ان اتجه الامبراطور وهو يرتدي معطفه الطويل الناعم وقبعته المشهورة المردودة الى اعلى نحوهم حتى صاح النقيب قائدهم : «هذا هو ! اطلقوا عليه النار !» بيد ان احدا لم يجد في نفسه الجرأة حتى على مجرد تحريك بندقيته •

اخترق «نابليون» صفوفهم وهو يهتف : «ايها الرجال ، انا امبراطوركم ! الا تعرفونني ؟» وسيطر جو من الصمت الرهيب على الضباط والجنود ، بينما استأنف نابليون صياحه : «اذا كان هناك احد منكم يريد قتل امبراطوره ، فهذا انا في وسطكم !» وفي اقل من ثوان ، اختلط الحابل بالنابل وقام افراد الكتيبة بالتجمع وهم يهدرون : «عاش الامبراطور !» •

حشود الجماهير

بيد ان نجاح «نابليون» اصبح امرا مؤكدا نتيجة لتصرف المرشال «ميشيل ناي» الذي كان قد وعد الملك بانه سيعترض طريق «نابليون» ويعود به الى «باريس» في «قفص من حديد» • ولكن ما ان وقعت عينا المرشال على وجه قائده السابق حتى تغلبت المشاعر على الواجب واستجاب لنداء قائده القوي بالانضمام اليه مع القوات التي جاءت معه «لغرض انقاذ فرنسا» •

وبعد ثلاثة اسابيع فقط من نزوله على سواحل فرنسا ، كان «نابليون» في باريس مرة اخرى وسط حشود الجماهير التي كانت تهتف له دون انقطاع • وقد لخص القاص المشهور «هنري دي بلزاك» الامر بقوله :



نابليون يعود من جزيرة «البا» وسط الهتاف والتهليل

«لقد كسب امبراطورية بمجرد ان عرض قبته !» ومن الطبيعي ان الملك لم يجد مفرا من ترك فرنسا مع اعوانه حيث توجه الى «لندن» .

لا سلام معه !

كان زعماء الاقطار الاوربية الاخرى ، وهي النمسا وبروسيا وروسيا وبريطانيا ، مجتمعين في مؤتمر «فينا» المعروف عندما وصلت الانباء عن عودة نابليون الى باريس فاقسموا : لا سلام معه ، وما ان اقترب المؤتمر من نهايته حتى زحف جنود بريطانيا وبروسيا وهم قرابة مائتي الف رجل الى بلجيكا تمهيدا لغزو «فرنسا» .

غير ان «نابليون» لم يكن ذلك الرجل الذي يتخذ موقف الدفاع ، وهكذا وبسرعة محمومة ، استطاع تعبئة ١٢٨ الفا من الجنود المتمرسين بالقتال وشن هجوما قبل ان يشرع الحلفاء باتخاذ خطوة مماثلة .

سارت بداية الحملة ، التي قيض لها ان تستمر ثلاثة ايام قبل ان تصل ذروتها في واترلو ، لمصلحة نابليون بشكل رائع . وما ان سطعت الاشعة الاولى لشمس صباح ١٥ حزيران ، حتى اندفعت كتيبة اثر كتيبة من خيالته الخفيفة عبر الحدود البلجيكية الى الجنوب من «شارلروا» وكانت خطة الامبراطور بسيطة تقضي بتوجيه ضربة عند نقطة الاتصال بين الجيشين البريطاني والبروسي بشكل خاطف ومن ثم تدمير قوات الحلفاء في وقت واحد .

تمركز البروسيون بقيادة المرشال «بلوخر» البالغ الثانية والسبعين من العمر والذي يمتلك خبرة قتالية ميدانية طويلة مع «نابليون» على

ضفاف نهري «سامبر» و «موز» شرقي بلجيكا . اما البريطانيون وحلفاؤهم - وهم في الغالب من الهولنديين والبلجيكيين - تحت قيادة الدوق «ولنغتون» فقد اتخذوا مواقعهم في «بروكسل» العاصمة والى الجنوب والغرب من البلاد .

اكتساح

وما ان حل منتصف النهار ، حتى استطاع الفرنسيون اجتياز «سامبر» وهو الحاجز المائي الوحيد امامهم وهم يكتسحون المواقع البروسية الامامية الموجودة في طريقهم . وعندما اصدر «نابليون» أوامره بالتوقف عن الزحف عند حلول الظلام كانت طوابيره قد خلفت «شارلروا» وراءها وهي تتقدم نحو «بروكسل» . وبعد ان تناول الامبراطور طعام العشاء عند منتصف الليل مع المرشال «ناي» توجه للنوم في عربته الخاصة .

وفي اليوم التالي ، واثناء تراجع البروسيين امام ضغط قوات المرشال «ناي» شن نابليون هجوما عنيفا على مواقع البريطانيين الذين اضطروا للتقهقر ولكن الى موقع «مونت سانت جان» الحصين على مسافة من «بروكسل» حيث استطاعوا المقاومة طوال باقي ذلك النهار واليوم الذي اعقبه .

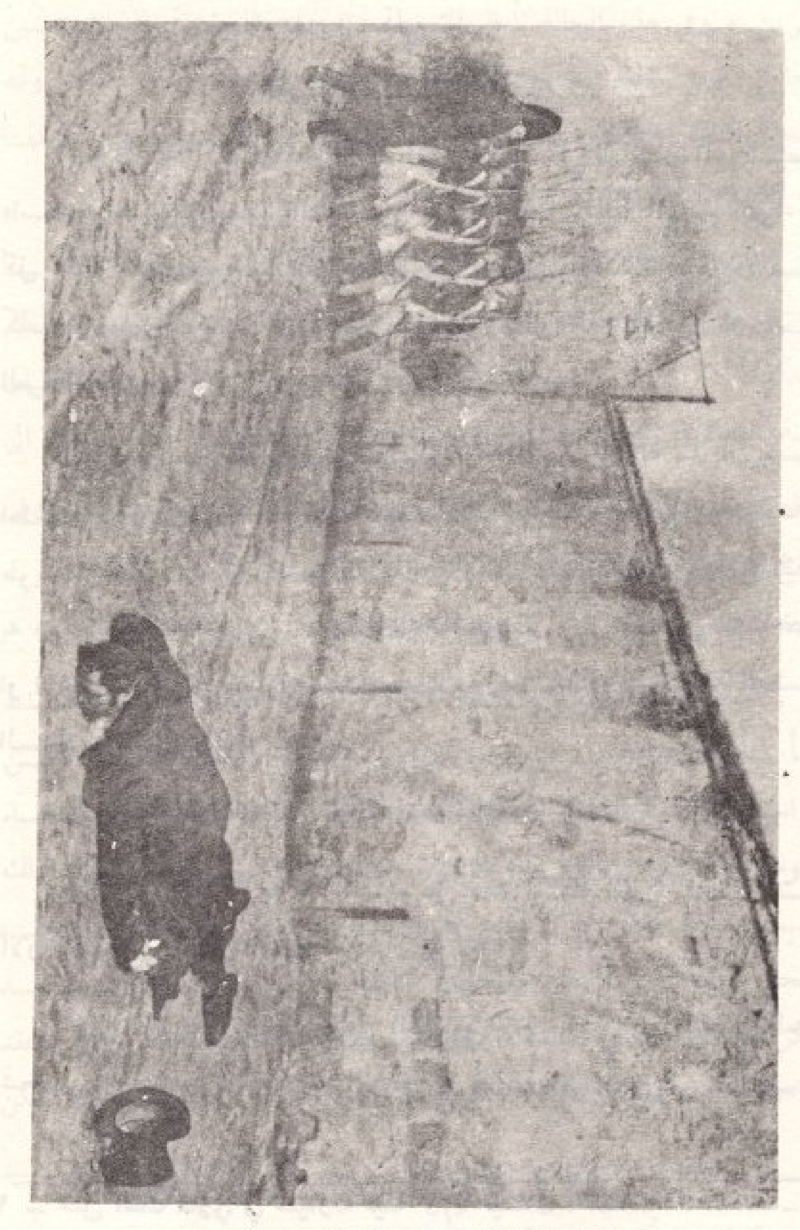
المفاجأة القاتلة

ولم يكن «بلوخر» راغبا في المحافظة على حالة انسحاب ، لذا استغل فرصة اشتباك الفرنسيين مع البريطانيين في «واترلو» فأصدر أوامره الى قواته بمهاجمة نابليون من الميمنة اي في قلب الجبهة تماما . وكانت المفاجأة القاتلة ان «نابليون» وجد نفسه في قتال من الشمال واليمين،

فلم يجد بدا من التقهقر .

وكانت تلك فرصة «ولنغتون» لدفع احتياطيه الكبير الى المعركة التي تحولت الى مجزرة بحيث غطيت الارض بجثث الفرنسيين اما الذين بقوا على قيد الحياة فقد تركوا كل شيء واضطروا الى الفرار للنجاة بحياتهم ومنهم الامبراطور بالذات الذي استسلم ، فيما بعد ، للانكليز حيث تم نفيه الى جزيرة «سانت هيلانه» في قلب المحيط الاطلسي ، وظل هناك الى ان مات بعد ذلك بستة اعوام فنقل جثمانه سنة ١٨٤٠ الى «باريس» باحتفال رسمي وشعبي كامل ودفن في مقبرة الخالدين .

اما المرشال «ناي» الذي اطلق عليه نابليون لقب «اشجع الشجعان» فقد نجا من الموت بدوره وعاد الى باريس ، ثم اختفى عن الانظار عدة شهور في احدى القرى جنوبي فرنسا . ولكن سرعان ما القي عليه القبض وقدمه الملكيون الذين عادوا الى السلطة لمحكمة عرفية قضت باعدامه رميا بالرصاص وهذا ما تم فعلا في ٧ كانون الاول ١٨١٥ دون ان يحضر اعدامه احد وكانت هذه من اغرب المفارقات في تاريخ فرنسا الحديث !



نهاية مفجعة للمرشال «نـاي»

٧
مـن قتـل الملك غازي ؟

مما لا شك فيه ان الذكريات التي نشرت على لسان المرحوم «اسماعيل حسن» مهندس اذاعة قصر الزهور قد استقطبت اهتمام القراء في كل مكان ، وخاصة تلك التي تتعلق بقضية مقتل «الملك غازي» لان هذه كانت ، وما زالت ، من اشد الامور غموضا واثارة للتساؤل في تاريخ العراق الحديث .(١)

والواقع ، فان الذي دفعني الى كتابة هذا الموضوع انه منذ أن بدأ اهتمامي بماضي بلادنا القريب بالظهور سواء على شكل كتب او ابحاث طويلة او مقالات ، كان السؤال التقليدي الذي يطرحه على كل من التقي به من الاصدقاء والمعارف : من قتل الملك غازي ؟ وهم يقصدون الشخص او الاشخاص الذين نفذوا العملية بعد ان وردت اسماء عدة ، ومتناقضة السلوك والغايات ، بهذا الصدد .

القتـل عـادة

ولغرض القاء المزيد من الضوء على هذه المسألة المثيرة للجدل حتى الان ، نقول ان القتل ، عادة ، يكون على نوعين :

اولا : ان يقدم انسان ما على الفتك بشخص اخر ، او اشخاص لعداء شخصي او دفاعا عن النفس او العرض او المال وحتى بتحريض من

---

١ - قتل الملك غازي في سيارته ليلة ٣/٤ نيسان ١٩٣٩ .

اخرين • وفي هذه الحالة تأخذ الشرطة والجهات المسؤولة بالبحث عن الجاني ، ومن خلفه اذا كان ذلك قائما ، لغرض تقديمه الى المحاكمة ، وقد تفلح في ذلك او تخفق لكنها تظل على المحافظة على الاستمرارية في عملها الى أمد قد يكون قصيرا او طويلا •

ثانيا : وهناك القتل المعروف باسم «الاغتيال السياسي» وهذا يتم اما للانتقام من سياسة حاكم ما ، ونادرا ما يؤدي ذلك الى تغير في مسار نظام الحكم[٢] • بيد ان اخطر انواع الاغتيالات هي التي تقوم بتدبيرها جهات معينة منظمة او تربطها مصالح وذلك لاعتقادها ان القتل سيؤدي الى تخلصها من عقبة تقف امام اهدافها خاصة اذا كان للشخص المستهدف اتباع او شعبية تحول دون القيام باي اجراء اخر •[٣]

الملك والاعداء

نعود الى «غازي» فهو النجل الوحيد للملك «فيصل الاول» وقد نشأ نشأة اعتيادية بعيدا عن حياة القصور والبذخ ، وتلقى قسطا من دراسته في الكلية العسكرية على أيدي عدد من الضباط المعروفين بالاتجاه القومي ، وابرزهم تأثيرا عليه الشهيد «محمود سلمان» وبذلك اصبحت لديه قناعة بان الانكليز هم السبب الاول في الكوارث التي حلت، وتحل بالامة العربية عامة وفلسطين خاصة • ومن البديهي ان تمتد الكراهية الى «نوري السعيد» الذي تولى رئاسة الحكومة عام ١٩٣٠ وعقد معاهدة[٤] مع بريطانيا قوبلت باقصى قدر من المقاومة والسخط ، ولا يمكن

---

٢ - الامثلة كثيرة في امريكا اللاتينية وسائر ارجاء العالم الثالث •
٣ - كما حدث عند محاولة اغتيال «هتلر» في ٢٠ تموز ١٩٤٤ •
٤ - المعروفة باسم معاهدة ١٩٣٠ •

لشخص ، مثل نوري ، ان تفوته هذه الحقائق فقابل الملك مقتا بمقت .(٥)

ولم يلبث الانكليز ان شعروا بذلك ، بيد انه كان لديهم أمل في أن يتغير موقف «غازي» منهم عندما يتولى العرش بعد وفاة والده وذلك بالاستفادة من صغر سنه اذ كان في الحادية والعشرين فقط عند وفاة «فيصل الاول» في ٨ أيلول عام ١٩٣٣ اضف الى ذلك انه سيكون محاطا بساسة ضمنت «لندن» ولاء معظمهم .

الانقلاب

أواخر عام ١٩٣٦ وقع اول انقلاب عسكري في تاريخ العراق والعرب الحديث بقيادة الفريق «بكر صدقي» . وعلى الرغم من العوامل المعقدة التي ادت الى الانقلاب او رافقته واعقبته ، فقد كان من ابرز احداثه مقتل «جعفر العسكري» وزير الدفاع وصهر «نوري» ومن ثم تشريده بالذات الى خارج البلاد حيث ظل يعيش خائفا مذعورا من احتمال اغتياله ، وهذه عملية سياسية بالطبع .(٦)

لم يستمر «صدقي» طويلا في ممارسة دكتاتوريته ففي اب من العام التالي ، جرى اغتياله من جانب تنظيم عسكري وسياسي متماسك وبذلك تم تغيير الحكومة ، ومن ثم السياسة الداخلية والخارجية للدولة بأسرها .

---

٥ ـ يقال ان «نوري» اعترض على فكرة زواج «غازي» من «صبيحة» كريمة «ياسين الهاشمي» خشية من زيادة نفوذ الاخير وان ذلك كان من عوامل زيادة حقد الملك عليه .

٦ ـ صارت الحكومة المصرية تتشدد في منح سمات الدخول الى مصر للعراقيين خوفا من وصول اي شخص قد يقوم بعمل ما ضد «نوري» في «القاهرة» حيث كان يقيم مع افراد عائلته .

وهنا يبرز جزء من الجواب على سؤال : من قتل الملك غازي ؟ ذلك ان احدا لم يبد اهتماما ، في حينه ، بالشخص او الاشخاص الذين فتكوا بالفريق بقدر توجيه التهمة مباشرة الى مجموعة من الضباط من حامية «الموصل» اي ان القائم بهذه الخطوة في العادة يكون شخصية ثانوية ولولا عصيان حامية «الموصل» ومن ثم معسكر «الوشاش» في «بغداد» لأدى ذلك الى فشل العملية السياسية بأسرها .

وعاد نوري

كان «الباشا» كما ذكرنا يقيم في «القاهرة» عند وقوع هذه الاحداث ، ورغم ان العديد من الساسة العراقيين ارتأوا عند سقوط حكومة «حكمت سليمان» ان يعهد له بالرئاسة الا ان الملك رفض ذلك رفضا قاطعا لادراكه ان «نوري» سينتقم منه لاعتقاد الاخير أنه مساهم ، او على الاقل راض عن الانقلاب ، ولذلك ارتؤي ان يكون المنصب من نصيب «جميل المدفعي» المعروف بأنه «رجل التهدئات» .

والواقع انه فات المرحوم «حسن» ما ورد في مذكرات الشهيد «صلاح الدين الصباغ» بالحرف الواحد : ثم عادت بي الذكرى الى سنة ١٩٣٧ بعد اسبوعين من مقتل بكر صدقي ، اذ جاء صباح بن نوري بن سعيد الى بغداد (بعد أن كان وابوه طريدين خارج العراق) فدعاني وفهمي الى وليمة في فندق كارلتون (أمر زيا) اقتصرت علينا نحن الثلاثة . قال صباح ان اباه اوفده للاتصال بنا واستشارتنا بخصوص عودته الى بغداد ...

«ثم اضاف صباح في مجرى الحديث ما اذا كنا نرى قتل غازي والحاقه ببكر صدقي[٧] وتخليص البلاد من عبثه ، فرد عليه فهمي بصوته

---

٧ — تم تدبير العملية من جانب الضباط القوميين واشرف عليها الشهيد العقيد (المقدم آنذاك) فهمي سعيد .

الجهوري :ـ «لا يا صباح ، لن يحدث هذا ابدا»[8] • وهنا تراجع «صباح» عن موقفه قائلا بأن ذلك من بنات افكاره ، ومن هذا يثبت ان فكرة اغتيال الملك لم تكن جديدة ولا بنت ساعتها ولا تعود الى عام ١٩٣٩ بل الى العام السابق وربما قبله[9] •

وبعد شهور من المقابلة المشار اليها ، عاد «نوري» الى بغداد حيث شرع في الحال في شن سلسلة من المناورات السياسية ادت الى قيام الجيش بانقلاب اواخر عام ١٩٣٨ واسقاط حكومة المدفعي وهنا نرى أن من المناسب العودة الى «الصباغ» لصلته الوثيقة بتطور الاحداث آنذاك •

تذكرت حديثه (غازي) لي بالهاتف ليلة ارغم الجيش وزارة جميل على الاستقالة •

ـ يا صلاح الدين لقد استدعيتم جميلا على متن طيارة من لبنان بعد مقتل بكر ليرأس هذه الوزارة ، وكان ذلك خلاف رغبتي ، فماذا تريدون الان ؟

ـ نريد الوفاء بالعهد وقد حنث جميل بوعده وقسمت وزارته الجيش الى معسكرين ، ونحن يا سيدي طوع يدك ونبذل ارواحنا في سبيلك •

لكن نوري هو المطلوب يا سيدي بعد ان رفض طه الهاشمي رئاسة الوزارة •

ـ ساقبل الأستقالة يا صلاح الدين بشرط ان لا يأتي نوري بعده ، وانا أوافق على اسناد الوزارة لاي رئيس باستثناء نوري •

---

٨ ـ فرسان العروبة في العراق ، ص ٩٠ •

٩ ـ قد يكون ذلك سنة ١٩٣٧ بالذات •

لكن غازي لم يتراجع وبقي على رأيه ، فلما انبثق الفجر كان لنوري ما تمنى .(١٠)

مشكلة الاذاعات

وفي ظل غياب قيادة «ياسين الهاشمي» القومية التي اطاح بها الانقلاب ، اوجد الملك له مكانة فريدة وذلك بنصبه اذاعتين في «قصر الزهور» و «قصر الحارثية» يوجه منهما اراءه الى الشعب العراقي وباقي ارجاء المشرق العربي[١١] داعيا الى تخليص «العراق» من قيود معاهدة ١٩٣٠ وانقاذ «فلسطين» و «سوريا» و «لبنان» و «شرقي الاردن» من قيود الانتداب حتى ولو ادى ذلك الى قيام ثورة ضد الانكليز والفرنسيين .

وسرعان ما اصبح «غازي» موضع اعجاب شعبي هائل وكراهية منقطعة النظير من جانب الانكليز واعوانهم ولم يكتف بذلك بل وثق علاقات الصداقة الشخصية مع القوميين سيما الضباط الشباب الذين كانوا يبدون اعجابا علنيا بنهوض المانيا بقيادة «هتلر» الامر الذي جعل حقد اعداء الملك يأخذ شكلا واضحا .

ومما زاد الطين بلة ، كما يقال ، ان الطابور الخامس أخذ بث الاشاعات ان للملك علاقات شخصية مع الالمان (كان هتلر قد قدم له سيارة مرسيدس فخمة ومسدس هدية عام ١٩٣٦) خاصة بعد ان كشف بعضهم النقاب عن ان الدكتور «فريتز غروبا» وزير المانيا المفوض في بغداد قد استورد اجهزة لمحطة أذاعية كاملة مع خبراء قاموا بنصبها في «قصر الزهور».

١٠- الفرسان ص ٩٥ .

١١- كان بأسره تقريبا خاضعا للسيطرة البريطانية او الفرنسية .



الملك غازي باستقبال الامير طلال ولي عهد شرقي الاردن قبل مصرعه بايام .

الموقف الدولي

في هذه الاثناء ، اخذت مكانة المانيا على المسرح الدولي بالارتفاع ، فقد تمكنت من استعادة بعض الاقاليم من «فرنسا» وارغمت «بريطانيا» على ان تتفاهم معها بشأن ضم المقاطعات الغربية من «تشيكوسلوفاكيا» والتي تقطنها اغلبية من قومية «السوديت» من اصل الماني ، اضافة الى امكانية قيام «برلين» بغزو «بولندا» مما سيؤدي الى اشتعال حرب عالمية بالتأكيد ؛ خاصة بعد ان اعلنت «بريطانيا» و «فرنسا» انهما ستخوضان الحرب بأي ثمن في حالة اقدام «برلين» على الغزو .

وفي ظل هذه الظروف المرعبة بالنسبة للحلفاء ، استمر «غازي» في نشاطه السياسي الخفي وبث اذاعاته مما اثار المخاوف بأن ذلك قد يؤدي الى وقوع ثورة في «العراق» ذاته ، ولما كانت التطورات المقبلة تتضمن ضمان الهدوء في المنطقة بأسرها فقد صار من الواضح ان «الاغتيال السياسي» هو الحل الوحيد امام الانكليز لاستبدال سياسة النظام وكذلك اشباع تعطش «السعيد» للانتقام .

لم قتلوه !

كان موضوع الملك يضغط على دماغ «نوري» بشدة ، فعدا عن كراهيته الشخصية لعوامل بسطناها ، فان الانكليز كانوا يلحون من اجل ايجاد «حل» للمسألة . ويقول السير «موريس بيترسون» السفير البريطاني في العراق والذي كان قد غادر «بغداد» قبل الحادث بشهر ، يقول في مذكراته الموسومة«جانبي الستار» انه قام بزيارة وداعية للامير «عبد الاله»

الذي لم تكن له صفة رسمية قائلا له بالحرف الواحد : «ينبغي السيطرة على غازي والافلايد من خلعه ». ومن الواضح ان «نوري» و «عبد الاله» قد اخفقا في السيطرة على الملك فقررا التخلص منه بصورة نهائية بالقتل بالتواطؤ مع السفارة البريطانية .

نعود الى سؤال القراء والاصدقاء : من قتل الملك غازي ؟ الجواب على ذلك ان المسألة ليست هذا الشخص المنفذ او ذلك ، بقدر ما ان العملية خطة سياسية بين عدة اطراف اشرنا اليها . اما من يكون الشخص المشار اليه فاننا نعتقد ان الامر لا يستحق هذا القدر الكبير من الاهتمام .

واخيرا ، فمن المعروف انه في حالة تنفيذ حكم الاعدام ، شنقا او رميا بالرصاص بحق شخص او اكثر فان احدا لا يبادر الى السؤال عن هوية الذين صدرت اليهم الاوامر بذلك ، ولعل في هذا ما يكفي لتقديم الاجابة الشافية على السؤال ، وهي لا تقدم ولا تؤخر قليلا من حقيقة ان الملك كان ضحية للخطة التي اشرنا الى اطرافها بالتفصيل .

٨

الحسيني في بغداد

في اوائل عام ١٩٣٩ ، اندلعت نار الحرب العالمية الثانية وكانت رئاسة الوزارة في العراق بأيدي «نوري السعيد» الذي بادر الى قطع علاقات العراق الدبلوماسية مع «المانيا»[١] وذلك بدعوى تطبيق احكام معاهدة ١٩٣٠ التي عقدها شخصيا مع الانكليز علما بانها لم تلزم العراق بذلك .

وقد تام «نوري» بذلك رغم معارضة العديد من المدنيين والعسكريين ومنهم «رشيد عالي الكيلاني» رئيس الديوان الملكي وضباط الجيش المعروفين باسم «العقداء الاربعة» وغيرهم .

الفكرة القومية

وكانت فكرة القومية العربية قد نامت بشكل لم يسبق له مثيل ، وقد لعب اللاجئون والاساتذة والمعلمون الفلسطينيون والسوريون دورا لا يستهان به في هذا المضمار وكانت قضيتا فلسطين وتحرير سوريا وتحقيق الاستقلال التام للعراق ومسألة الوحدة العربية في مقدمة الامور التي تلهب خيال القوميين ليس في العراق وحده بل وفي ارجاء عديدة من الوطن العربي . وقد كان تحديد الصفة القومية يعتمد على مقدار قربه من هذه القضايا والعمل من اجلها .

---

١ ـ كانت علاقات العراق مع المانيا على مستوى مفوضية يشغلها الدكتور «غروبا» المعروف بصلاته الواسعة مع عدة اوساط .

ولم يأخذ «نوري» بنظر الاعتبار المشاعر القومية ولا الآثار الخطيرة التي تركتها القضايا المذكورة ليس في نفوس الرأي العام فحسب، بل وقطاع كبير من الساسة وقادة الجيش وهو سوء تقدير قيض له ان ينقلب عليه في اول محاولة لوضع العراق في خدمة المجهود الحربي البريطاني دون ان تقدم انكلترا للعرب غير الكتاب الابيض الغامض في الوقت الذي بلغ فيه النشاط الدعائي والسياسي لدول المحور [٢] على صعيد اجتذاب العرب ذروته. [٣]

وجاء المفتي

في غضون ذلك، كان قد طرأ على السياسة العراقية تطور خطير شعر به «نوري» واعوانه منذ البداية الا انهم لم يتمكنوا من الحيلولة دون حدوثه لانه ارتبط في الحال تقريبا مع الاحداث العراقية التي فات ذكرها؛ ففي اواخر عام ١٩٣٩ وصل مفتي فلسطين «امين الحسيني» الى بغداد وكان قدومه سرا لم يعرف به الا «الكيلاني» وبعض الضباط وقد عاونه الاول على اجتياز الحدود دون جواز سفر ثم قدمه للوصي فاصبح ضيفا رسميا على الحكومة العراقية مما حال دون تحقيق رغبة «نوري» في ان يقيم المفتي في مدينة «كركوك» تجنبا للمضاعفات التي قد تنجم عن وجوده في «بغداد» وقد ايد الاخير مشاعر رئيس الوزراء تجاهه بقوله: «ورغم ما بدر من

---

٢ - المانيا وايطاليا.

٣ - كان المذيع المعروف «يونس بحري» يبث الدعاية المعادية لبريطانيا وفرنسا من راديو «برلين» وظل كذلك حتى نهاية الحرب.

نوري السعيد باشا من حسن الاستقبال والترحيب فقد ظهرت على محياه علامات القلق لوصولي ».[4]



عبدالاله

نزل المفتي في دار كبيرة خصصت له في شارع «الزهاوي» القريب من البلاط الملكي في ضاحية الاعظمية ، وعلى الرغم من انه ومن سبقه من المجاهدين الفلسطينيين وهم نحو مائتين قد قرروا عدم التدخل خلال اقامتهم في العراق في الشؤون الحزبية او السياسة المحلية «وان لا يتسببوا في اي حرج او ازعاج للسلطات العراقية»[5] الا ان المفتي الذي كانت تربطه علاقات شخصية بمعظم الساسة العراقيين حيث اتصل بهم اثناء وجوده في لبنان بعد خروجه من فلسطين عام ١٩٣٨ سرعان ما وجد نفسه ملزما بالتخلي عن خطته تلك .

---

٤ ـ مجلة فلسطين ، العدد ٧٦ تموز ١٩٦٧ ويضيف الى ذلك قوله : «لكن الانكليز ساورهم قلق شديد من وصولي واخواني المجاهدين الى العراق وكانت السفارة البريطانية تبادر بالاحتجاج على كل حركة من حركاتي ».

٥ ـ المصدر السابق .

فاضافة الى الصلة التي توطدت بينه وبين الكيلاني بحكم معرفتهما القديمة والدور الذي لعبه في تسهيل دخوله العراق وتقديمه للوصي وما له من سمعة قومية ، فقد كانت للحسيني صداقة قديمة منذ ايام العثمانيين ببعض القادة العسكريين وكانوا على اتفاق في الاراء والمبادىء ويقول بهذا الصدد : «فلما لقيتهم في بغداد سنة ١٩٣٩ الفيتهم ، وقد اصبحوا من كبار قادة الجيش العراقي ، يلتهبون حمية وحماسة ورغبة صادقة في خدمة العراق والوطن العربي ويتطلعون الى من يتعاون معهم في هذا الميدان ، فحاولوا ذلك مع نوري السعيد بادىء الامر ثم التفوا حول طه الهاشمي الذي كان وزيرا للدفاع لكن امالهم خابت ، فاتجهوا نحو رشيد عالي وتعاونوا معه وتعاهدوا على العمل باخلاص وروية في خضم الحرب العالمية الثانية ..»(٦)

ويستفاد من مذكرات الصباغ ان المفتي هو الذي اقنع الكيلاني بقبول رئاسة الوزارة ، وانه كان صلة الوصل بين العقداء الاربعة والكيلاني اذ اجتمع بهم وراح يقنعهم بان رأي الاخير سيكون موافقا لرأيهم ورأي طه تمام الموافقة وبأنه سيكون معهم قلبا وقالبا ، ثم جمعهم المفتي مرة اخرى وكان رشيد عالي حاضرا وبعد ان طرح الكيلاني خطة وزارته المقترحة ، طلب منهم الاتفاق معه على ان يكون المفتي كفيله ، وبذلك تم التلاقي بين قادة الجيش والكيلاني يعززه المفتي ويقويه ، وهو التلاقي الذي قيض له

---

٦ ـ مجلة آخر ساعة العدد ١٩٧٧ ، ١٣ ايلول ١٩٧٢ .

ان يوجه الاحداث التي تلاحقت بسرعة حتى جرته بريطانيا الى الاصطدام معها فيما بعد .

موقف العراق

وفي الوقت الذي كان فيه «نوري» يبذل اقصى ما في وسعه من جهد لدفع العراق نهائيا الى جانب بريطانيا ، كانت الامور تسير باتجاه مغاير تماما اذ يقول المفتي : «اشرت في فصل سابق الى ظروف الحرب العالمية الثانية وانتصارات المانيا المتوالية على الدول الغربية المستعمرة التي اوسعت العرب ظلما وارهاقا ونقضت عهودها التي قطعتها لهم في الحرب العالمية الاولى ، ولم تكتف بذلك بل توجت ظلمها للعرب وعدوانها عليهم بوعد بلفور الذي قطعته بريطانيا لليهود ، بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين ، رغم انوف العرب جميعا ، فكان من الطبيعي ان تتجه ابصار العرب الى الالمان الذين اعتبروهم اصدقاءهم ، لانهم اعداء اعدائهم من المستعمرين واليهود .

«كما ان المانيا لم يسبق منها اساءة للعرب ، بل كانت سياستها من قبل قبل مخالفة لسياسة الدول الغربية الاستعمارية ، وكان اهل العراق ، كغيرهم من العرب ، يتجهون الى المانيا بابصارهم وافئدتهم ، ويعقدون عليها آمالا كبارا ، وينتظرون منها النجدة والفرج ، وكنا في هذه الظروف نبحث احوال الامة العربية ، مع الصفوة من احرار العرب في العراق ، بالتعاون مع الحكومة الكيلانية ، وتدارس الاوضاع السياسية والعسكرية ونحاول انتهاز فرصة الحرب للعمل لصالح الامة العربية ، وتحطيم اغلالها

وتحقيق وحدتها من براثن المؤامرة اليهودية الاستعمارية . وانتهى التفكير الى محاولة الاتصال بالالمان للتعاون معهم على الوصول الى هذه الاهداف الوطنية .[7]

ايفاد

كان الاجتماع الاول لمجلس الدفاع الاعلى ، الذي عقد في أواسط حزيران ١٩٤٠ قد ساده الرأي القائل بوجوب الانتظار والتريث ، سيما وان فرنسا قد انهارت امام المانيا وبقيت بريطانيا وحيدة ، وتقرر في الاجتماع ايضا ان افضل خطة في ذلك الظرف ارسال وزير العدل «ناجي شوكت» الى «انقرة» لمعرفة موقف تركيا من تطورات الموقف الدولي ومن سوريا في حالة قيام ثورة فيها ضد سلطات الانتداب التي اعلنت ولاءها لنظام «فيشي» الموالي للالمان في فرنسا .

وقد جاء اختيار «شوكت» لهذه المهمة لما له من صلات طيبة مع الساسة الاتراك اذ سبق له تمثيل العراق عدة مرات في انقرة ، والواقع فان «شوكت» كان مكلفا بمهمة اخرى في غاية الخطورة كما ثبت فيما بعد فقد كان مزودا برسالة تعريف من المفتي الى «فون باين» سفير المانيا لدى تركيا ، وقد تم اللقاء بينهما فعلا بواسطة «زولتان دي مار ياشي» وزير المجر المفوض وفيما يلي النص الكامل لرسالة التعريف هذه :

اللجنة العربية العليا **بغداد ، ٢١ حزيران ، ١٩٤٠**
فلسطين

---

٧ ـ مجلة فلسطين ، العدد ٧٩ ، تشرين الاول ، ١٩٦٧ .

صاحب السعادة : لي الشرف ان اقدم لسيادتكم صديقي ناجي بك شوكت وزير العدل في مملكة العراق ، الذي يتوجه الى انقرة اليوم • اؤكد لسعادتكم ان ناجي بك شخص يمكنكم ان تضعوا فيه ثقتكم التامة في مناقشة المسائل العامة المتعلقة بالاقطار العربية •

انها مناسبة عظيمة بالنسبة لي ان اكون قادرا على الدخول في اتصالات مع حكومتكم بواسطة سعادتكم ، نظرا الى انه منذ بداية الحرب الحالية فان الظروف الصعبة التي وجدت نفسي فيها في سوريا ، فيما يتعلق بالفرنسيين ، وفي العراق ، بالنسبة للبريطانيين ، قد جعلت هذه الاتصالات مستحيلة • وعلى هذا فانني انتهز الفرصة التي يوفرها سفر صديقي ناجي بك ، لان اكتب الى سعادتكم طالبا ان تنقلوا لصاحب الفخامة الرئيس والزعيم العظيم (هتلر) اخلص التهاني بمناسبة الانتصارات السياسية والعسكرية العظيمة التي احرزها توا عن طريق بعد نظره وعبقريته العظيمة •

التمس من سعادتكم ان تنقلوا له احتراماتي وتقديري مصحوبة بافضل امنياتي للمشروع الذي بدأه لخلق نظام جديد • يجب ان اعبر له عن تشكراتي للاهتمام والانتباه الذي لم يتوقف مطلقا في السنوات الاربع المنصرمة عن اعطائه للقضية العربية عموما ولفلسطين خاصة • ان الشعب العربي في كل مكان يشعر باعظم الحبور واعمق البهجة بمناسبة هذه النجاحات العظيمة •

ان فلسطين التي كانت في السنوات الاربع المنصرمة تقاتل الديمقراطيات واليهودية العالمية ، مستعدة في اي وقت للقيام بدور فعال ومضاعفة جهودها



هتلر في مقر قيادة الجيش الالماني

سواء في الداخل أو في الاقطار العربية الاخرى • ان الشعب العربي الذي شوهت سمعته واسيئت معاملته وخدع من جانب اعدائنا المشتركين ، يتوقع عن ثقة ان نتيجة انتصاركم النهائي ستكون استقلاله وتحريره التام وكذلك خلق وحدته عندما يرتبط ببلدكم بمعاهدة صداقة وتعاون •

التمس سعادتكم ان تبحثوا مع صديقي ناجي بك بالتفصيل القضية العربية ومستقبل فلسطين وسوريا ، وكذلك البرنامج الذي قد تـراه حكومتكم مناسبا لوضع الاسس لتحقيق التعاون بين شعبينا • ارجو سعادتكم ان تصدقوا المشاعر الاخوية للغاية للشعب العربي تجاه شعبكم العظيم والباسل ، واقدم لكم يا صاحب السعادة ، افضل تحياتي •

مفتي فلسطين الاكبر
محمد امين الحسيني[8]

وبعد المقابلة التي جرت بين «شوكت» و «بابن» رفع الاخير مذكرة الى وزارة الخارجية الالمانية قال فيها بانه اخبر الاول ان التطورات القادمة للوضع السياسي في الشرق الادنى تحظى باهتمام ايطاليا بالدرجة الاولى وعلى هذا لا يمكن اعتباره الا وسيطا لنقل المقترحات والاماني الموجهة الى ايطاليا عن طريق حكومة الرايخ[9] •

لـي الشرف

ولم يفت ذلك في عضد المفتي ، فقد قطع خطوة اخرى هامة في

---

٨ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية بالانكليزية ، المجلد ١٠ ص ١٤١ ـ ١٤٤

٩ ـ الاسم الرسمي لالمانيا آنذاك •

طريق التقارب مع المانيا ، اذ قام بارسال سكرتيره الخاص «عثمان كمال حداد» في مهمة الى «برلين» و «روما» بعد ان زوده برسالة شخصية الى السفير «بابن» في «انقرة» طالبا منه مساعدته بالشكل التالي :

٩٨-٩٧ ٢٣٦١/٤٨٨٠

من المفتي الاكبر الى السفير في تركيا

بغداد ، ٢٢ تموز ، ١٩٤٠

يا صاحب السعادة :

لي الشرف ان اؤكد برسالتي الحالية رسالتي السابقة مع صديقي ناجي بك . لقد اطلعني على ما دار في مقابلته معكم ، الامر الذي يدفعني الى ان ارجوكم تقبل اخلص تشكراتي .

ونتيجة للمقابلة المشار اليها اعلاه ، وبالاتفاق مع جميع اصدقائنا ، فانني اصدرت التعليمات الى سكرتيري الخاص بان يقوم برحلة الى برلين وروما للشروع في المفاوضات التمهيدية التي تهدف الى اقامة تعاون وثيق ومباشر بين الاقطار العربية والمحور . ان سكرتيري الخاص ، حامل هذه الرسالة ، مسافر باسم مستعار ، غير انه معروف بصورة جيدة جدا من جانب اصدقائنا في برلين . التمس منكم ، ياصاحب السعادة ، ان تكرموه بثقتكم الكاملة وان تقدموا له جميع التسهيلات الضرورية لانجاح رحلته .

ومع الثقة في الاحتمالات الجيدة لعلاقاتنا القادمة ، التمس منكم ان تقبلوا ، ياصاحب السعادة ، اخلص تحياتي .»[١٠]

١٠- وثائق وزارة الخارجية الالمانية ، المجلد ١٠ ، ص ٢٧٥ .

الى الفوهرر

وبعد سلسلة من المباحثات والمراسلات التي لم تسفر عن نتيجة عملية ، تقرر أن يتوجه السكرتير الخاص للمفتي في مهمة ثانية ، وكان «حداد» مزودا هذه المرة برسالة شخصية من المفتي الى هتلر هذا هو نصها:

بغداد ، ٢٠ كانون الثاني ١٩٤١

من المفتي الاكبر الى ادولف هتلر

يا صاحب الفخامة :

ان انكلترا ذلك العدو الذي لا يعرف الرحمة والشفقة للحرية الحقيقية للشعوب والمحتال ، لم تعرف التعب مطلقا في صهر الاغلال لاستعباد الشعب العربي واخضاعه ، طورا باسم عصبة الأمم الغادرة ، وحينا اخر بالتبجح بالانسانية الزائفة والمنافقة تجاه الاخرين ، ولكنها تهدف على الدوام الى أوسع الاهداف الاستعمارية المتسترة خلف مبادىء الديمقراطية والاممية الزائفة .

ونتيجة للصدفة الجغرافية ، فان الشعب العربي وجد نفسه في قلب مفترق طرق برية وبحرية تشكل ، في رأي الانكليز المحور الرئيس «للمواصلات الامبراطورية البريطانية» . ولهذا السبب ، لم تترك وسيلة لخلق عراقيل دائمة لاعاقة حرية الشعب العربي وتقدمه . ان المرء يمكنه حتى القول ان السلام النسبي الذي ساد بين فرنسا وانكلترا لاكثر من قرن يعود بدرجة كبيرة الى التفاهم الضمني بين هاتين الدولتين الكبيرتين لتبقيا العرب تحت نيرهما .

وهكذا طبقا قانون التقسيم الدنيء الذي اوجد على أية حال توازنا بين المطامع ، دون المساس بالشريان الحساس للمواصلات البريطانية «المقدسة» ! ان هذا التقسيم للنفوذ بين فرنسا وانكلترا ادى ، اضافة لذلك، الى تحطيم المقاومة ورد الفعل من جانب العرب وذلك بوضعهم داخل كماشة مختلف الدول الكبرى القوية ، غير أن السياسة الانكليزية لم تستطع لوقت طويل ان تقف في وجه يقظة القومية العربية ، ولهذا يمكن تفسير النشاط المتواصل من جانب انكلترا لخلق عوائق جديدة ضد حصول العرب على الاستقلال وضد حريتهم ، وهكذا كان التاريخ المحزن للعقود الماضية والذي يضع امام العالم مشهد الكفاح المستمر واليائس .

اما في العراق ، فانا نكلترا ، بسياستها التقليدية فرق تسد ، ابتكرت خطة لتوطين عدة ملايين من الهندوس يجلبون من الهند البريطانية جنبا الى جنب مع السكان العرب الاصليين . احبطت الخطة بواسطة ثورة دموية[11] ، وهكذا اضطرت انكلترا الى الاستسلام للامر الواقع وكرست اهتمامها في الاستغلال الفوري لنفط العراق ، وبايجاز ، فان الملك فيصل الاول ، وافق على العيش بسلام . وعلى الرغم من معارضة غالبية الشعب العراقي ، فانه وقع على معاهدة مع انكلترا فابتاع الاستقلال النسبي بثمن امتيازات النفط .

وبشأن سوريا ، فانها سلمتها الى فرنسا وذلك بهدف تحطيم وحدتها القومية واستغلالها اقتصاديا لكي تكون قادرة ، بصورة افضل ، على قهر روحها الوطنية . وبعد ١٨ عاما من الكفاح ، اصبحت قادرة على ان تنتزع

١١ ـ يقصد ثورة العشرين .

من فرنسا معاهدة ١٩٣٦ الكسيحة معترفة باستقلالها ولكن مقابل امتيازات وتحفظات من جانب واحد • ومن ثم برزت انكلترا لسد طريق حرية سوريا وتوصلت الى اتفاقية مع تركيا لابطال مفعول المعاهدة الفرنسية ـ السورية • وفي هذا الوقت برز الاتفاق الانكلو ـ فرنسي ـ التركي ضد دول المحور •

كان هذا التمهيد عام ١٩٣٦ لمسألة الاسكندرونة وانطاكية والذي انتهى بتسليم الاقليم المذكور الى تركيا من جانب فرنسا من جهة ، والغاء معاهدة ١٩٣٦ بين فرنسا وسوريا من جهة اخرى • وهكذا كانت هذه المناورة «ديمقراطية للغاية» من جانب انكلترا على حساب سوريا على الرغم من اللجان وتقارير عصبة الامم ، التي كانت جميعها لمصلحة المسألة السورية •

انتقل الى مصر • حسنا ، منذ ١٨٨٢ ثبتت انكلترا نفسها هناك «مؤقتا» لان الشعب ، الثائر ، طلب من الخديوي دستورا وطنيا يهدف الى كبح جماح تبذير الاموال وتنظيم الميزانية طبقا لمصالح البلاد وحاجاتها • غير ان انكلترا الديمقراطية المزعومة احتلت البلاد لغرض انقاذ عرش الخديوي بذريعة حفظ النظام في الاسكندرية • بينما قامت انكلترا الغادرة، بحبك الدسائس واشعال نار الفتن والاضطرابات بواسطة عملائها الاستفزازيين •

والواقع ، فان الهدف هو قناة السويس والمواصلات الامبراطورية • انتظرت مصر حتى عام ١٩٣٦ للحصول على معاهدة كسيحة مماثلة ، مع التحفظات المألوفة ، وهذه الحقيقة لا تعود الى ـ الكرم الانكليزي ـ فالامر

ابعد من ذلك كثيرا بل ببساطة الى تحطم ميزان القوى في البحر الابيض المتوسط نظرا الى ان ايطاليا اخذت موقفا اقوى واكثر تهديدا ضد «المصالح» الانكليزية .

والان ، وبعد العديد من الاقطار الاخرى في شبه الجزيرة العربية ، تأتي فلسطين . ان قضيتها ، يا صاحب الفخامة ، معروفة جيدا لديكم لانها هي ايضا كان عليها ان تعاني من غدر الانكليز ونكثهم بالعهود . انها قضية ايجاد عائق دون وحدة الاقطار العربية واستقلالها بوضعها مباشرة امام يهود العالم بأسره ، وهم اعداء خطرون ، اسلحتهم السرية هي الاموال والفساد والدسائس ، اضافة لحراب الانكليز . وطوال ٢٠ عاما كنا وجها لوجه مع هذه القوى المختلفة . ان عرب فلسطين ، المسلحون بالايمان الذي لا يقهر بقضيتهم ، قد قاتلوا بكل ما لديهم من اساليب . واضافة لذلك ، فان قضية فلسطين قد وحدت جميع الاقطار العربية في كراهية مشتركة للانكليز واليهود . واذا كان وجود عدو مشترك تمهيدا لتشكيل وحدة قومية ، فان بمقدور المرء القول ان مشكلة فلسطين قد عجلت في هذه الوحدة .

اما من وجهة النظر الدولية ، فان يهود العالم بأسره قد اعطوا ولاءهم لانكلترا بأمل ان هذه ، في حالة انتصارها ، ستكون قادرة على جعل احلامهم امرا واقعا في فلسطين وحتى الاقطار العربية المجاورة ، واذا نال العرب العون في الحاق الهزيمة بالاهداف الصهيونية ، فان اليهود ، خاصة الذين في الولايات المتحدة ، سيفقدون روحهم المعنوية عندما يرون هدف احلامهم

وقد داب الى لاشيء بحيث يفقدون حماسهم لمساعدة بريطانيا العظمى وسيستقهرون قبل حلول الكارثة ٠

ارجو الا يشعر فخامتكم بالمضايقة لانني ، رويت بطريقة موجزة تاريخ الخصومة العربية لانكلترا ، لانه بدا لي ضروريا ان اوضح الاسباب الجوهرية التي تثير العالم العربي ضد الانكليز ٠ لقد كنت متلهفا بصورة خاصة لان اذكر ان لهذه الاسباب جذورها العميقة على شكل مصالح أساسية ومشاكل ، حيوية وليس قضايا عقيمة ذات تأثيرات سطحية ومؤقتة ٠ ان اشد مشاعر الشعب العربي حرارة تجاه المانيا والمحور قد اصبحت من الان فصاعدا حقيقة ثابتة وليس بمقدور اية دعاية ان تبدل هذا الواقع ٠ واذا ما تم تخليص العرب من عوائق معينة ، فانهم مستعدون للعمل في كل مكان، بالشكل المطلوب ، ضد العدو المشترك واخذ مكانهم بحماس الى جانب المحور واداء دورهم في الحاق الهزيمة العادلة بالائتلاف الانكلو - يهودي٠

ان القومية العربية مدينة لفخامتكم بالامتنان والتقدير لانكم اثرتم قضية فلسطين مرة تلو الاخرى في خطبكم الرائعة ٠ انني متلهف هنا لان اعيد مرة اخرى تشكراتي لفخامتكم وان اؤكد لكم مشاعر الصداقة والعطف والاعجاب التي يضمرها العرب لفخامتكم ، ايها الفوهرر العظيم ، وللشعب الالماني الشجاع ٠



لقاء هتلر والمفتي ويبدو أن الالمان تعمدو تعتيم الصورة لغاية أمنية .

اتهز هذه الفرصة لان ابعث الى الحكومة الالمانية سكرتيري الخاص لغرض الشروع باسم اكبر واقوى منظمة عربية وباسمي شخصيا ، بالمفاوضات الضرورية لاقامة تعاون مخلص وصادق في جميع المجالات .

انني ارى ان اضيف بجلاء ان العرب مستعدون لرمي ثقلهم في الميدان وتقديم دمهم في الكفاح المقدس من اجل حقوقهم ومطامحهم القومية بشرط ضمان دعم معنوي ومادي معين . انه لمن الامور الهامة اتخاذ الحيطة الضرورية ضد عدو مخاتل وقوي ، ومن الضروري اخذ الاساليب والقوة بنظر الاعتبار لغرض خوض وضمان اقصى قدر من النجاح . ان بعد النظر امر لا غنى عنه خاصة وان انكلترا مجبرة على ان تتصرف وترد بكل ما لديها من قدرة على ضوء الطبيعة الاستراتيجية للاقطار العربية ، التي تستطيع آنذاك تهديد مواصلاتها الامبراطورية وشل جميع اتصالاتها مع الهند والبحر الابيض المتوسط وتركيا وان تضع ، في نفس الوقت ، نهاية للاستغلال وبيع النفط لمصلحة انكلترا .

ارجو فخامتكم ان تتقبلوا مشاعر الصداقة ، والاعجاب ، والامتنان من قبلي .

مفتي فلسطين الاكبر[12]
محمد امين الحسيني

يتضح من الوثائق السابقة ان المانيا كانت قد اعطت ايطاليا «الاسبقية» لاعادة تنظيم المنطقة العربية ، غير ان ثلاثة عوامل تحكمت في الموقف هي : اولا : ان المانيا كانت ترى في السيادة السياسية لايطاليا في المنطقة اداة

١٢ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ، المجلد ١٠ ، ص ١١٥١ـ١١٥٥ .

لتحقيق مصالحها الاقتصادية والثقافية والاثارية هـي او لضمان استمرار المصالح القائمة فعلا على الاقل .

ثانيا : ان اعادة تنظيم المنطقة العربية سياسيا كان يتطلب هيمنة عسكرية ، وبتعبير ادق ان تكون ايطاليا قادرة على أخراج بريطانيا عسكريا من المنطقة ، وقد نجحت جزئيا في البداية في شمال افريقيا وذلك نتيجة لسقوط فرنسا في حزيران ١٩٤٠ ووقوف بريطانيا وحيدة امام المانيا التي كانت توشك على غزو الجزر البريطانية ، ومع ان الفرصة كانت سانحة بالفعل لتحقيق احلام ايطاليا ، الا ان القوات الايطالية اخذت بفقدان زخمها في مطلع عام ١٩٤١ على الحدود بين ليبيا ومصر وتحول الايطاليين الى المرتبة الثانية .

ثالثا : ورغم التأكيدات الالمانية على دور ايطاليا في المنطقة وضرورة عدم اتخاذ اية خطوة فيما يتعلق بالتعاون مع العرب الا بالتشاور مع ايطاليا و «اخذ مصالحها بنظر الاعتبار» الا ان العراق ظل باستمرار يشغل مكانة خاصة في تفكير الالمان كما ورد في مذكرة «فون بابن» المؤرخة في ٣ تشرين الاول والموجهة الى وزارة الخارجية من ضرورة كسب العراق ليكون واسطة اتصال بالخليج العربي في فترة ما بعد الحرب التي يفترض ان المحور سيكسبها مما سيؤدي الى سيطرة ايطاليا على قناة السويس .

وبحكم العوامل المذكورة ، بدأت المانيا باتخاذ خط اكثر استقلالا بدلا من الرضوخ للاسبقية الايطالية كما كان الامر من قبل ، ففي ٤ شباط

١٩٤١ وجه مدير القسم السياسي مذكرة ورد فيها ان وزير الخارجية ، ريبنتروب ، قد اتخذ مجموعة من القرارات بشأن تسليم الاسلحة الى العراق والقضايا العربية ذات العلاقة كان من اهمها القراران التاليان :

١ ـ فيما يتعلق بسياستنا العربية يجب ان نستمر في ابداء الاهتمام الشديد بالحساسيات الايطالية •

٢ ـ ونظرا الى ان الايطاليين قد تركوا القضية العربية معلقة حتى الان ، فاننا نستطيع ، من جانبنا ، اخذ زمام المبادرة • وعلى أية حال ، ينبغي دوما ان ندع الايطاليين يساهمون في حينه ونتركهم يأخذون الاسبقية من حيث الظاهر •

وفي ذات الوقت ، اقترح وزير الخارجية مناقشة المسائل العربية مع القيادة العليا للجيش الالماني التي كانت قد عبرت عن رغباتها شفهيا عدة مرات بانها تتطلع الى تقوية النشاط الالماني في الاقطار العربية •

وكان القائم بالاعمال الايطالي في برلين قد اخبر وزارة الخارجية الالمانية بما دار في محادثات السكرتير الخاص للمفتي في روما ، واوضح القائم بالاعمال عدة نقاط منها ان ايطاليا لا تنوي ممارسة الكثير من الضغط على العراق لاتخاذ عمل ضد انكلترا لان الوصول الى المنطقة اسهل بالنسبة للانكليز من المحور وان اية عملية ضد انكلترا قد تؤدي بسهولة الى نجاح انكليزي • وفي نفس الوقت اعلن القائم بالاعمال ان الحكومة الايطالية وافقت على خطة لتجهيز العراق بالاسلحة مقابل بضائع •

وفي ٢٦ شباط استقبل «فورمان» وكيل وزارة الخارجية الالمانيـــة السكرتير الخاص للمفتي حيث ناقشا ثلاثة امور هي أصدار بيان سياسي جديد وتسليم الاسلحة والذخيرة والدعم المادي • وقد اخبر المســؤول الالماني ـ حدادا ـ بان الظروف السائدة تحول دون اصدار بيان مـؤيد للعرب طبقا للنص الذي كان سلمه للوزير ـ غروبـا ـ • ولمـا اراد السكرتير ان يعرف بالضبط النقاط التي تلقى معارضة • لم يدخـل فورمان بالتفاصيل مكتفيا بمثل واحد هو ان الاشارة الى اسم سوريا فـي البيان المقترح صعبة لانها قد تؤدي الى دفعها الى معسكر ديغول •

اما بشأن الاسلحة ، فقد صرح «فورمان» ان المسألة هي في طـور الدراسة الجدية من جانب المانيا كما ان «حدادا» قال بأنه فيما يتعلـق بالمساعدة المالية ينبغي التفريق بين مساعدة على شكل اعتمادات لشـحنات الاسلحة ومعونة في حالة حدوث صدام بين العراق وبريطانيا ، وفي هـذه الحالة فان فقدان المدفوعات الانكليزية يجعل مـن الضروري تقديـم اعتماد بمبلغ مليوني جنيه للعراق • وقد اصغى المسؤول الالماني لبيـان السكرتير هذا معبرا عن ادراك معانيه ولكن دون اعطاء اية وعود •

والواقع ، فان السلبية التي امتازت بها سياسة ايطاليا تجاه العـرب هي التي اعطت الالمان مبررا جديدا لكي يلعبوا دورا قياديا في العلاقـات مع العرب •ولعل اهم خطوة في هـذا الاتجاه المذكرة التي وجهها فورمان الى وزير الخارجية بتاريخ ٧ اذار عن «المسألة العربية» قال فيهـا بأن «هذه المناطق (العربية) ذات اهمية خاصة بالنسبة للطرق الجوية البريطانية»

واخيرا فان حقول النفط في الموصل والانابيب الى البحر الابيض المتوسط جوهرية لتسيير بريطانيا للحرب ».

وبعد ان ادرج سلسلة طويلة من المقترحات فيما يتعلق بالسياسة التي يرى ان على المانيا اتباعها «للمعالجة اللاحقة للمسألة العربية ، خاصة كيفية معالجتها فيما يتعلق بهدفنا في الحاق الهزيمة ببريطانيا» لخص تلك المقترحات بما يلي :

١ – فيما يتعلق بايطاليا ، فان ادعاء ذلك البلد بالاسبقية في المنطقة العربية لم يتغير ، غير ان المانيا سوف تتخذ مبادرة اعظم ، آخذة حساسيات الايطاليين بنظر الاعتبار ، ان تغيرا في هذا الاتجاه يجري عمليا بالفعل .

٢ – توسيع فعاليات الدعاية .

٣ – تخويل مصلحة الاستخبارات الخارجية التابعة للقيادة العليا للجيش الالماني تطوير نظامها الاستخباري في المنطقة العربية للشروع بعمليات تخريب او اثارة الانتفاضات في فلسطين وشرق الاردن .

٤ – المزيد من الدراسة لامكانيات اصدار بيان سياسي ، بالاشتراك مع الحكومة الايطالية . ان بيانا يؤيد اتحادا عربيا اكبر للاخذ برغبات العرب الكاملة غير عملي في الوقت الراهن وذلك من قبيل الاهتمام بايطاليا ودول اخرى .

اقترح ردا وديا الى سكرتير المفتي الاكبر ، وربما يكون من الافضل الرد على رسالة المفتي الاكبر للفوهرر على أن تكون الاجابة من قبل الفوهرر نفسه .

٥ – زيادة ملاحظة الدعم بواسطة الاسلحة والذخيرة ، واذا تطلبت الضرورة ، يمكن التماس قرار من الفوهرر ، حالما يتم اتخاذ قرار واضح حول الموضوع .

٦ – الدعم المادي طبقا للمقترحات ، خاصة الدفع الفوري بما يعادل ١٠٠ر٠٠٠ رايخسمارك الى المفتي الاكبر .[١٣]

٧ – ينبغي عدم مساندة ثورة مكشوفة من جانب العراق ضد بريطانيا بنشاط حتى تحل لحظة النجاح ، وفي غضون ذلك يجب ابقاء روح المقاومة حية .

اقر وزير الخارجية جميع المقترحات باستثناء خطط مصلحة الاستخبارات الخارجية فيما يتعلق بعمليات مستقلة في الشرق الاوسط . وكانت المقترحات تشمل ردا على رسالة المفتي الى هتلر . وهذا هو نص الرسالة التي وقع عليها وكيل وزارة الخارجية الثاني «وايزيكر» ووضعت بمعرفة الحكومة الايطالية .

١٣– لاستخدامها في تمويل الانتفاضة المنتظرة في فلسطين وربما شرق الاردن .

من وزارة الخارجية الى السفارة في تركيا

برلين ، ٨ نيسان ، ١٩٤١

تجدون طيا الرد من وكيل الوزارة وايزيكر على رسالة المفتي الاكبر الى الفوهرر ، يرجى ارساله عن طريق وسيط الى المفوضية العراقية في موقع عملكم ، مختوما وبطريق مأمون ، الى هدفه .

(مرفق)

برلين ، ٨ نيسان ، ١٩٤١

الى صاحب السماحة

المفتي الاكبر

السيد الحاج امين الحسيني

بغداد :

يا صاحب السماحة : استلم الفوهرر رسالتكم المؤرخة ٢٠ كانون الثاني ، التي ارسلتموها له عن طريق سكرتيركم الخاص .

لقد لاحظ باهتمام وعطف عظيمين بياناتكم عن الكفاح الوطني للعرب وشعر بالسرور للعبارات الودية التي وجهتموها له نيابة عن القومية العربية وعنكم . انه يرسل لكم بواسطة وزير الخارجية فون ريبنتروب احتراماته وتشكراته وافضل امنياته بالنجاح المستمر للقضية العربية .

لقد دخل سكرتيركم الخاص في المحادثات التي أشرتم اليها في رسالتكم

وبناء على الرغبة التي ابداها بشأن توضيح السياسة الالمانية تجـــاه العرب ، فاني مخول بان انقل لكل ما يلي :

ان المانيا ، التي لم تمتلك مطلقا اراض عربية ، ليس لديها اهـداف اقليمية في المنطقة العربية •

انها ترى ان العرب ، وهم شعب ذو حضارة قديمة ، برهن عــلى قدرته من حيث النشاط الاداري وعلى فضائله العسكرية قادرون كلية على حكم انفسهم • ان المانيا ، بناء على ذلك ، تعترف بالاستقلال التام للاقــطار العربية ، او المطالبة بالحصول عليه حيثما لم يتحقق ذلك حتى الان •

ان الالمان والعرب لديهم اعداء مشتركون هم الانكليز واليهود وهـم متحدون في الكفاح ضدهم •

وبناء على الصداقة التقليدية لالمانيا تجاه العرب ، واستنادا الى الرغبـة التي بعثتم بها بواسطة سكرتيركم الخاص ، فانها مسرورة للتعاون بطريقـة ودية مع العرب • واذا اجبروا على مقاتلة انكلترا لغرض تحقيق اهدافهـم القومية ، لمنحهم المساعدة العسكرية والمالية الضرورية •

ولغرض معاونة العرب في استعداداتهم للكفاح المحتمل ضد انكلترا ، فان المانيا مستعدة ايضا لتزويدهم بالمواد الحربية فورا ، وذلك عندما يمكن العثور على طريق لنقلها •

انني اود ان اقترح بأنه لغرض المزيد من البحث لتفاصيل التعـاون الودي المنتظر ، ان ترسلوا ثانية سكرتيركم الخاص او ان تبعثوا بمفاوض آخر الى هنا اذا ما حل بينه (حداد) وبين القدوم •

يرجى ابقاء هذه الرسالة سرا ، لقد اعلمت الحكومة الايطاليـــة بمحتوياتها ، وقد وافقت عليها .

انني لا اشك في ان سكرتيركم الخاص سيؤكد لكم من الانطباعـات التي حصل عليها في المانيا من ان انتصار المحور مؤكد وان هزيمة انكلترا امر محتوم .

مع افضل الامنيات لرفاهكم الشخصي ولمزيد من النجاح في قيادتكم الباسلة للقضية العربية .(١٤)

المخلص ، الخ
وايـزيكر

كانت الضغوط التي مارسها الوصي ، بدعم من الانكليز ، قد ادت الى ارغام وزارة الكيلاني على الاستقالة في ٣١ كانون الثاني ذلك العـام فعهد الى طه الهاشمي بتأليف حكومة جديدة الا ان هذه الخطوة لم تكن كافية . فقد كان البريطانيون يدركون مدى خطورة استمرار العقـداء الاربعة في قيادة الجيش العراقي كما ان حكومة الهاشمي لم تبادر الى قطع العلاقات مع ايطاليا او التقليل من نشاط المفتي واعوانه على الرغم مـن الحاح الانكليز والحاح عبدالاله . وواصل الساسة القوميون فعالياتهم ، فكان لابد من حدوث مجابهة حاول العراق تجنبها بينما اعدت بريطانيـا العدة لتفجيرها حتى يتسنى لهم ضمان سير المجهود الحربي بالشكل الـذي يتمشى مع مصالحهم .

١٤ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ، المجلد ١٢ ، ص ٤٨٩ـ٤٩٠ .

وفي اواخر شباط ، عقد اجتماع في القاهرة بين وزير الخارجية البريطاني «انطوني ايدن» ووزير خارجية العراق «توفيق السويدي» الذي كان قد توجه الى العاصمة المصرية لهذا الغرض ، وعلى الرغم من ان «السويدي» قدم تقريرا الى مجلس الوزراء . عند عودته ، الا انه لم يتطرق بالذكر الى مسألة كبار ضباط الجيش العراقي كما ان الهاشمي في مذكراته لم يشر الا الى «القضايا العربية ، ولا سيما قضية سوريا» وكذلك الى العلاقات مع ايطاليا ، الا ان للبريطانيين رواية اخرى عن الاجتماع تقول :

«قال المستر ايدن بان بريطانيا العظمى تريد موقفا اكثر تعاونا وبصورة خاصة قطع العلاقات مع ايطاليا . بدا وزير الخارجية (العراقي) راغبا في الموافقة ، غير انه اوضح صعوبة ضمان تعاون الجيش ، قال بأنه منذ بداية الحرب فان بريطانيا العظمى ابقت الجيش العراقي يعاني من نقص في التجهيزات الحربية ، وانه صار من الصعب قطع العلاقات مع ايطاليا بناء على طلبنا ، لو انه اعطي مهلة فانه سيحاول كسب قادة الجيش وبخلاف ذلك فانه سيحاول ازاحتهم ، اما اذا اخفق في انجاز ذلك فانه سيستقيل .»(١٥)

١٥- Woodward, Iraq and Syria, p 27

وقد اخفق «السويدي» في تحقيق ما يريد ، بيد ان محاولة «طـــه» نقل العقيد «كامل شبيب» من بغداد الى الديوانية بداية العاصفة التـــي استمرت على اشدها شهرين كاملين ثم آلت الامور بعد ذلك الى الانكليـز واعوانهم • اما المفتي فقد وجد نفسه مضطرا الى ترك «العراق» والتوجـــه مع قادة الثورة المدنيين والعسكريين الى «ايران» في ٣٠ مايس ١٩٤١ ومن هناك الى المانيا حيث مكث حتى هزيمة المانيا وانتصار الحلفاء عام ١٩٤٥ •

٩

نائب هتلر بأيدي الانكليز

في ٢٠ تشرين الثاني ، ١٩٤٥ ، افتتحت في مدينة «نورمبرغ» الالمانية المحاكمات المعروفة بنفس الاسم حيث مثل واحد وعشرون من كبار المسؤولين العسكريين والمدنيين الالمان أمام قضاة من اربع دول هي : الاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وذلك بتهم عديدة منها اثارة الحرب العالمية الثانية وارتكاب اعمال وتجاوزات لم تتفق مع القوانين الدولية السائدة .

وعلى الرغم من ان قفص الاتهام قد ضم مجموعة ظلت محط انظار الصحافة والناس في شتى ارجاء العالم طوال سنين عديدة مثل «غورنغ» نائب الفوهرر و «ريبنتروب» وزير الخارجية والمرشال «كايتل» القائد العام للقوات الالمانية المسلحة ألا أن «رودلف هيس» نائب «هتلر» السابق انتزع حصة الاسد من اهتمام اولئك الذين تابعوا المحاكمات عن كثب ؛ ذلك ان «هيس» سبق له التحليق في طائرة صغيرة من احد المطارات الالمانية السرية في ١٥ مايس ١٩٤١ [١] ثم توغل في الاجواء البريطانية الى ان قام بهبوط اضطراري في مزرعة تعود الى الدوق «هاملتون» عضو مجلس العموم عن حزب «المحافظين» والشخصية المتنفذة في الحياة السياسية البريطانية ، ولقد اصيب «هيس» جراء هبوطه الاضطراري بجرح طفيف

---

١ ــ اي ابان احتدام ثورة مايس في بلادنا .

في ساقه وبعد ذلك جاء جنود ونقلوه الى معسكر «مار بهلز» في مدينـــــة «غلاسكو» بانتظار التعليمات دون ان يتعرف احد منهم عليه .

لمـــاذا ؟

لقد مرت اكثر من اربعة عقود على ذلك الحادث الذي هز الدنيا بأسرها، ومع ذلك لم يتوصل احد الى اي جواب لاحد الاسئلة الثلاثة التالية :

اولا : هل قام «هيس» بمغامرته من تلقاء ذاته ؟

ثانيا : ام انها جاءت تنفيذا لامر «هتلر» لعله يفلح في اقنـــاع المسؤولـــين الانكليز ، وفي مقدمتهم رئيس الوزراء ونستون تشرشل ، للتوصـــل الى اتفاق منفرد للصلح مع المانيا التي كانت تتخذ الاستعدادات لغـزو الاتحاد السوفيتي بعد اسابيع ؟[٢]

ثالثا : هل كان «هيس» مصابا بالجنون ، او عـلى الاقل بخلل في عقلـــه كما حاول ان يوحي بذلك سواء بعد مرور ايام على اعتقاله في انكلترا او اثناء مثوله في قفص الاتهام في نورمبرغ ؟[٣]

مهمـة خاصـة

كان اول سؤال وجه للرجل الغريب حول اسمه فزعم انه «الفريد هورن» وانه قادم بمهمة خاصة ، واضاف انه ليس على استعداد للتحدث الى

٢ ـ تم ذلك فعلا في ٢٢ حزيران ١٩٤١ .

٣ ـ ظل «هيس» يقوم بتصرفات غريبة داخل قفص الاتهام دون ان يعرف احد السبب في ذلك كما انه امتنع في كثير من الحالات على اســئلة القضاة والادعاء العام .



هتلر (الوسط) والى يساره نائبه «هيس» قبل أيام من مغادرة الاخير الغامضة الى بريطانيا ٠

اي أنسان عدا الدوق «هاملتون» ، وهنا تقدم منه احد الجنود وفتشه فوجد في جيبه بطاقتي زيارة ، احداهما باسم الدكتور «كارل هوسوفر» .

وعلى الرغم من اشعار الدوق بالامر ، الا انه لم يصل الى المعسكر الا في اليوم التالي ، وعندما قدم له المحققون تقريرا اوليا عن الموضـــوع ، استوقفه اسم «هوسوفر» عدة دقائق ، فهو يتذكر هذا الاسم جيدا اذ سبق له التعرف في «برلين» على الطبيب الالماني وان كانت الاحداث ومرور السنين قد تركت في ذهنه صورة باهتة للرجل .

الا تعرفني ؟

توجه الدوق برفقة آمر المعسكر واحد المترجمين الى غرفة الاسير الالماني المجهول ، وهناك فوجىء برؤية رجل مرهق وقد غارت عيناه في محجرين عميقين وان لم تفقدا بريقهما وحدتهما[٤] ، وعلى الفور طلب الالماني تركه للتحدث مع الدوق الذي كان يحسن الالمانية ، فلما خلا الجو لهس جعل يحدق في «هاملتون» لعل الاخير يتذكره وعندما خاب امله قال:

ـ يظهر انك لم تعرفني ، الا تعرف هذا الوجه ؟

شكلا لا اعرفك ، فمن انت ؟

ـ الا تذكر انك رأيتني في برلين عام ١٩٣٦ عندما اقيمت دورة الالعـــاب الاولمبية ؟ الا تذكر اننا تناولنا طعام الغداء على مائدة ؟

وازاء الحيرة التي ارتسمت على وجه الدوق ، قال الاسير الالمانـــي بغتـة :

٤ ـ كان في الثامنة والاربعين من العمر آنذاك .

– تذكر ! انا رودلف هيس ! اجل جئتكم بمهمة خطيرة ارجو ان يكون فيها خدمة لشعبينا وحقن لدمائنا . اما لماذا وقع خيار نائب «هتلر» على «هاملتون» بالذات فانه يوضحه بما يلي :

– انا على يقين من انك تدرك نبل مقصدي وحقيقة غرضي ، فقد حدثنا صديقي «موسوفر» بامرك وقال انك خير من يقدر خطوتي هذه ويفهم ما اعرضه من اقتراحات ووجهات نظر في مصلحة دولتينا . ولعلك لم تنس الرسالة التي بعث بها اليك في ٢٣ كانون الاول الماضي من اجل تلاقينا.»(٥)

ماذا يريد ؟

وعلى الرغم من ان الدوق لم يكن يحمل صفة رسمية وليس مخولا بالتفاوض مع اي مسؤول الماني ، الا انه آثر الاصغاء الى آراء «هيس» التي تلخص بما يلي :

اولا : ان المانيا في الوقت الراهن هي اقوى دولة في القارة الاوربية ، ومع ذلك فانها لا ترغب في فرض شروط تعجيزية على الحكومة البريطانية.

ثانيا : عقد صلح منفرد بين البلدين يقوم على سلام دائم وضمان مصالح الطرفين ؟ اي اطلاق يد المانيا في اوربا مقابل احتفاظ بريطانيا بامبراطوريتها .

---

٥ – وكانت الاشاعات بهذا الشان قد اشتدت في الاوساط السياسية والدبلوماسية في القارة الاوربية .

ولما اشار «هاملتون» الى عدم امكان حصول اي تفاهم وقد اغرقت المانيا بلاده في بحر من الدمار والدماء والدموع ، ادرك «هيس» ان الدوق أبى أن يأخذ على عاتقه تبعة مفاوضات خطيرة من هذا النوع ، كما ان فكرة مصالحة «المانيا» لا تلقى أرضا خصبة حتى بين اشد معارضي «تشرشل» وحكومته .

تحذير

وبعد ان تم رفع تقرير عن الامر الى رئيس الوزراء تقرر ان يتوجه «كير كباتريك» احد كبار موظفي وزارة الخارجية الى حيث يوجد «هيس» فتعرف عليه من النظرة الاولى لانه سبق له العمل في السفارة البريطانية ببرلين قبل نشوب الحرب والتقى به كثيرا .

بدأ الالماني حديثه بالتذمر من سوء المعاملة التي لا تتناسب مع مركزه، وبعد ان شرح الطريقة التي اتبعها للوصول الى بريطانيا ، اضاف بأنه قام بهذه المبادرة من تلقاء ذاته ودون علم «هتلر» او اخذ موافقته غير أن اللهجة التي استخدمها والعروض الخطيرة التي تقدم بها لا يمكن ان تكون صادرة عن رجل لا يحمل اي تفويض .

وفي مرحلة لاحقه ، وجه «هيس» الاتهام الى «بريطانيا» بأنها المسؤولة عن اثارة الحرب العالمية الثانية ثم قال : انكم هالكون لا محالة اذ ان انتاج الطائرات في المانيا بات رهيبا يوما بعد يوم وانه ليفوق بمراحل انتاج انكلترا وفرنسا مجتمعتين ، وكان هذا القول من قبيل التحذير .

مسـألة جغرافية

ومن قبيل التساهل ، اعاد نائب «الفوهرر» التأكيد على الاقتـراح القائل بوجوب اطلاق يد .. المانيا في اوربا مقابل اطلاق يد بريطانيا حـرة في امبراطوريتها على ان تستعيد «برلين» الاقاليم التي كانت تابعة لها قبـل الحرب العالمية الاولى .

وعندئذ سأله كيباتريك ، هل روسيا في اوربا او آسيا ؟

فاجاب «هيس» دون تردد : في اوربا .

– اذن لا يطلب هتلر سوى اطلاق يده في اوربا ، الا يعني هذا انه يريد ان يكون حرا في مهاجمة روسيا ؟

وسرعان ما جاء الرد : ان لالمانيا بضعة مطالب ستتقدم بها الى روسيا التي عليها ان ترض بها اما بالمفاوضات واما بالحرب ، بيد ان ما يشاع حاليا من ان هتلر سيقوم بهجوم قريب على روسيا فلا صحة له .

اتركوا العـراق !

وعلى اية حل ، فقد برهنت الاحداث التي تلاحقت بسرعة البـرق بعد ذلك ، اي بعد مهاجمة المانيا للاتحاد السوفيتي ان «هيس» اما ان يكون جاهلا بالخطة المتعلقة بذلك او انه لم يشأ الكشف عن هذا السر البالـغ الخطـورة .

وعلى الرغم من «كيباتريك» زار الاسير الالماني يومي ١٤ و١٥ ايس وحدثه طويلا الا انه لم يتقدم اي اقتراح من اي نوع كان ، بل اكتفـى

بالاصغاء أو توجيه الاسئلة للحصول على اكبر قدر ممكن من المعلومات .

وذات يوم قال «هيس» بأن على بريطانيا ان تجلو عن «العراق» نتيجة لاي صلح مقبل .

وردا على سؤال كيباتريك : هل العراق موجود في اوربا ؟

قال الاسير : ان العراقيين هم الشعب الوحيد الذي امتشق السلاح ضدكم في هذه الحرب ويريد الفوهرر ان يحسب لهم حساب في معاهدة الصلح .

وعندما اراد المسؤول البريطاني غلق الحديث ، صاح به هيس : لكم من رحلتي هذه فرصة اخيرة في أن تفتحوا باب المفاوضة وتنقذوا الموقف ، فاذا ابيتم برهنتم على انكم لا تريدون الاتفاق مع المانيا ولن يخطىء هتلر حينئذ اذا قام بواجبه فسحقكم سحقا تاما وابقاكم بعد الحرب اذنابا لا رؤوسا !

وحين اقفل «كيباتريك» باب الزنزانة وراءه كان وجهه آخر وجه انكليزي يراه «هيس» باستثناء وجوه حراسه ، اما الان فانه شيخ عجوز قارب التسعين من عمره وسجين في قلعة «شباندا» في قلب «برلين» ولن يغادرها الا وهو في عداد الاموات ؟ ذلك ان «نورمبرغ» حكمت عليه بالسجن مدى الحياة مع عدد اخر من رفاقه الذين تركوا القلعة ، جميعا بنفس الطريقة .

١٠

بغداد تسقط ثانية

عندما بدت نذر ثورة مايس ، ١٩٤١ ، في الافق بارغام «الهاشمي» على الاستقالة في شهر نيسان وفرار الوصي الى الحبانية فالبصرة واستلام السلطة في «بغداد» من جانب حكومة الدفاع الوطني برئاسة «الكيلاني» ، كان «جيرالد دي غوري» يشغل مركز السكرتير الاول في المفوضية البريطانية بطهران • وسرعان ما عهد له بمهمة لم تخطر له على بال ، فقد طلب منه التوجه الى «البصرة» ممثلا لبريطانيا لدى «عبد الاله» الذي استقر على ظهر الباخرة الانكليزية «كوك شبير» حيث نصبت له الحكومة البريطانية اذاعة خاصة وعينت «انور مخلص» مذيعا فيها •



رشيد عالي الكيلاني

وبالفعل توجه «دي غوري» الى «البصرة» ولكن ليجد ان الاحـداث تطورت بشكل غير متوقع ايضا ، بيد ان ذلك لم يمنعه من المضي قـدما في تنفيذ مهمته التي بدأت بالدخول الى نطاق مثير ، وهنا نترك له ان يحدثنا ولاول مرة ، عن حقيقة ماجرى امامه او على يديه :

يقول : «ليلة الاول من نيسان استولى الجنرالات[1] الاربعة عـلى السلطة ، بعد ان دفعوا الجيش الى العاصمة لحراسة النقاط الهامة والقصر.

اوقف ضابط الارتباط الجوي البريطاني بحد الحراب عندما كـان في طريقه الى مقر قيادة القوة الجوية الملكية في الحبانية ، وبعد ان وجـد نفسه مرغما على العودة ، اتجه الى السفارة البريطانية حيث وجد ان القوم هناك لم يقتنعوا بعد ، بجدية الموقف وخطورته . شرع الضابط في الرحيل مرة اخرى ، فاجتاز نهر دجلة بواسطة جسر القوارب[2] ، وبعد ان حصل على معونة دليل من احدى القبائل ، وصل الحبانية في النهاية عن طريـق الصحراء واجتاز الفرات عند الرمادي ، وبهذا صار بمقدوره اعطاء مقر قيادة القوة الجوية الملكية تحذيرا فوريا بان انقلابا قد دخل طور التنفيـذ في «بغداد» .

---

١ ـ العقداء : صلاح وفهمي ومحمود وكامل .
٢ ـ كان هذا يربط الكاظمية بالاعظمية ثم نقل الى موقع اخر بعد انجاز الجسر الحديد الحالي عام ١٩٥٧ .

فرّ الوصي مغادرة العاصمة للمرة الثانية[٣] ، فانطلق بالسيارة ليلا الى بيت عمته الاميرة «صالحة» التي تقيم في دار قديمة على الضفة الشرقية للنهر ، كانت القوات قد اتخذت مواقعها فعلا على جانبي الطريق بين مقره في قصر «الرحاب» والمطار ، بيد ان افرادها كانوا اما جلوسا هنا وهناك او واقفين دون اكتراث ومن الواضح انهم بانتظار الاوامر التي لم تصل بعد ، ولهذا ساوره الامل في عدم التعرض له وايقافه ، وفي غضون ذلك اتصلت احدى نساء العائلة هاتفيا بالدكتور سندرسن[٤] كما هو الحال عندما تكون هناك متاعب .



سندرسن باشا

---

٣ ـ كانت الاولى عندما لجأ الى دار اللواء «ابراهيم الراوي» قائد الفرقة الاولى في «الديوانية» أواخر كانون الثاني من نفس العام .
٤ ـ طبيب العائلة المالكة .

لم تبح هذه باسمها ، وكل ما فاه به الصوت : «ارجو ان تتوجه الى بيت عمتي في الحال ، انه أمر مستعجل ». ادرك الطبيب البريطاني ان الاميرة «عابدية» شقيقة الوصي هي التي كانت تتكلم وبخوف . وفي دار «صالحة» تم الاتفاق على أن يرتدي الوصي زي امرأة وان يأخذ طريقه ، بعربة يجرها حصان ، الى المفوضية الاميركية بعد ان قال «سندرسن» بان الذهاب الى السفارة البريطانية سيكون مسألة بعيدة عن الحكمة ، فذلك هو المكان الذي يتوقع الاخرون تماما انه موجود فيه ، لذا انجز الوصي عملية تنكره بمساعدة الاميرة «صالحة» بعد ان استعار عباءة وثوبا وحذاء من العائلة .

تحت الاقدام

وعند الوصول الى المفوضية الامريكية ، جابه الوصي صعوبة مؤقتة في السماح له بالدخول ، في دور امرأة غير معروفة من بغداد ، الى مقر الوزير ، بيد أنه استطاع ان يقنع احد الموظفين بوجوب مقابلة قرينة الوزير ، السيدة «بنشو» ، وبذا استقبل ونال العناية بانتظار وصول مندوب بريطاني والدكتور «سندرسن» لمناقشة الخطوة التالية . كان الطبيب قد قابل «ادريان هولمان» مستشار السفارة البريطانية ، فتم ارسال سيارتين تابعتين للقوة الجوية البريطانية مع بدلتين للضباط الى محل للقاء ، وهو ناد قرب المفوضية الامريكية .

وفي النهاية لم تستعمل اي من هذه من قبل الوصي ، بل من جانب مرافقه «عبيد بن عبد الله»[٥] الذي حصل على بدلة عسكرية بريطانية ونظارة غامقة ونسخة من صحيفة التايمز ليمسك بها امام وجهه ، كان من

---

٥ ـ المضايفي .

المقرر ان يغادر «نابنشو» بغداد بعد وقت قصير الى محطة القوة الجوية الملكية في الحبانية للترحيب بالسفير البريطاني الجديد السير «كينهان كورنواليس» فوفرت الرحلة الى الحبانية فرصة لايصال الوصي الى بر السلامة ، وكانت الترتيبات قد اتخذت فعلا لنقله الى البصرة ، وما ان يحل هناك ، فانه يتمكن عند الحاجة من ارتقاء سفينة حربية بريطانية •

ثم اخفاء الوصي في سيارة الوزير ، تحت سجادة بين اقدام نابنشو وقرينته ، وتقرر ان تسير سيارتا القوة الجوية في المقدمة ، وتجتازا الجسر ، وتنتظرا ومن ثم تعقبا سيارة المفوضية الامريكية •

بين الاحباب

وعند الجسر ، حدق أحد الضباط العراقيين داخل السيارة وهنا شاهدت السيدة «نابنشو» مسدس الوصي الاتوماتيكي بارزا من الزولية ، غير ان الضابط اعتدل في وقفته وسمح للسيارة بالمرور • لقد كانت راية الولايات المتحدة الامريكية على مقدمة السيارة بمثابة جواز سفر كاف في كل مكان طوال الطريق الى الامان مع القوة الجوية الملكية في معسكرها بعد الجسر عند الفلوجة • ولم يتمكن السفير من مقابلة حاكم البلاد الا في ذلك المعسكر وهو في طريقه الى خارج العراق ، اما السفير فلم يكد يصل سفارته حتى وجد نفسه سجينا فيها من قبل الجيش الثائر •

وفي هذه الاثناء ، نقل نوري باشا الى الحبانية في احدى سيارات القوة الجوية الملكية من جانب ضابط الارتباط الجوي قائد السرب «ب ـ دومفيل» • ثم ايقافهما عند جسر «الفلوجة» على يد حرس من

الجيش العراقي ، وبعد اسدال قبعتيهما المدئيتين على عيونهما ، تمكنا من اقناع الحرس بأنهما ضابطان بريطانيان عائدان من اجازة نهاية الاسبوع في بغداد .

ستة وزراء

كان الوصي قد نقل الى الاردن ومن ثم الى فلسطين بواسطة القوة الجوية ، فتألفت المجموعة التي نزلت في فندق الملك داود «بالقدس» من «نوري السعيد» ونجله «صباح» الذي نقل بدوره جوا و «داود باشا الحيدري» و «علي جودت» وهو رئيس وزراء سابق و «جميل المدفعي» رئيس وزراء سابق كذلك و «عبيد بن عبدالله» من الحرس الملكي وابن صديقي الحاجب البدوي للملك فيصل الاول و «الشريف حسين» شقيق زوجة فيصل . لقد انضمت اليهم ، قادما من طهران ، عن طريق البصرة ، بعد ايام قليلة من وصولهم .

كان الاربعة الاوائل سياسيين ، اما «عبيد» وهو اول عراقي يدرس في كلية الاركان البريطانية في «ساندهيرست» فانه فارس قبل اي شيء اخر، بينما لم يبد الشريف «حسين» اي ميل ، على الاطلاق للحياة السياسية لذا فانه لم يكن معروفا جيدا خارج نطاق اوساط البلاط . وعلى هذا فان «الحكومة في المنفى» التي كانت ستعرف بهذا الاسم ، لم يتوفر لها سوى اربعة اعضاء بينما النصاب القانوني لاي مجلس وزراء عراقي هو ستة اشخاص .

وعندما اخذت البرقيات بالتدفق من «لندن» على الوصي ملحة عليه من اجل تأليف حكومة ، فانه ظل ممتنعا عن ذلك ؛ ليس لان النصاب لن يكتمل

الا بتسمية الشريف ومرافقه[6] اعضاء في مجلس الوزراء فحسب ، بل لانه شعر ان من غير المستطاع اجتذاب المترددين الى جانبه اذا صار «نوري» رئيس للوزراء مرة اخرى .

واضافة لذلك ، فان نوري ، وجميل المدفعي وعلي جودت ، كانوا ينظرون ، احدهم الى الاخر ، بعين الشك والريبة . فاذا ابدى الوصي ، او بدا أنه سيبدي ، بعض الود تجاه واحد منهم ، فان الاخرين سرعان ما يصيبهما القنوط ، وعندما كنت ادلف الى صالة الفندق كل صباح ، فلابد ان الاحظ غياب واحد منهم ، فاذا توجهت بالسؤال الى الوصي : «اين فلان الفلاني ؟» فان الوزير السابق[7] يكون قد انتحى زاوية بعيدة خلف احدى الصحف . وعندما اتوجه للحديث مع ذلك الشخص في وقت لاحق فانه يزعم انه يشكو من الصداع او اي نوع من اسباب انحراف الصحة ، وفي كل يوم فان واحدا منهم ، بدوره ، يكون غارقا في دوامة من الكآبة والكمد .

لا حكومة مؤقتة

وعدا عن ذلك ، وكما يعرف الوصي ، فانه سيكون من قبيل الخطأ جعل «نوري السعيد» رئيسا للوزراء في وقت كان ذلك غير مرغوب فيه للغاية ـ رغم انه[8] لم يشأ اعطاء ذلك باعتباره السبب ـ وقاوم جميع المحاولات لاقناعه بتشكيل «حكومة» ، ومما لاريب فيه ان الفشل في خلق

---

٦ ـ عبيد .

٧ ـ الصحيح «رئيس الوزراء السابق» لان الثلاثة شغلوا ذلك المنصب .

٨ ـ عبدالاله .



موكب الفتوة امام مجلس الوزراء ايام ثورة مايس ١٩٤١

حكومة اخرى «في المنفى» طبقا للنموذج المألوف[٩] قد قوبل بالاستنكار في «لندن» .

كان جميع العراقيين في المنفى لا يكفون عن السؤال عن موعد رحيلهم الى بلادهم . بدا عليهم انهم يعتقدون ان الجيش البريطاني هو ابطأ حافلة عرفوها في حياتهم . والواقع ، فان الوحدات التي عهد اليها بمهمة الاستيلاء على قلعة «الرطبة» وسط الصحراء قبل ان يزحف الطابور الرئيس في اعقابها ، كانت بطيئة الى حد ما حول هذه المسألة . ذلك انها ، وهذا امر مفهوم ، كانت تلتزم جانب الحذر ازاء شن هجوم مباشر نظرا الى ان حامية القلعة كانت تمتلك عددا من المدافع الرشاشة .

وبعد طول انتظار ، وبفعل المساندة من الجو ، سقطت القلعة بيد سرية المدرعات الثانية التابعة للقوة الجوية الملكية ، وبدأت الخطوة التالية . كان «نوري» والاخرون متلهفين عندما زودوا بوسائط النقل والماء واخبروا انهم على وشك الرحيل . ذهبت الامتعة ، باستثناء حقيبة صغيرة واحدة للوصي واخرى لي ، بواسطة الطريق البري مع جماعة صغيرة من العراقيين الذين كانوا في «الاردن» او اي مكان اخر عندما بدأت الثورة فتطوعوا للقيام بذلك .

وعندما وصلوا الفرات ، سيطرت عليهم حالة من الفرح والحبور فرفضوا التوقف واستمروا في طريقهم الى «الرمادي» ، وهكذا ، وبعد ايام

---

٩ ـ بعد ان سقطت «بولندا» تحت السيطرة الالمانية ، قامت حكومة «حرة» او «في المنفى» في لندن ، ثم اعقبتها هولندا وبلجيكا والنرويج واليونان ، وهذا هو النموذج المالوف .

قليلة ، كان السياسيون بحاجة الى تبديل ملابسهم ، فالتمسوا مني ان احصل لهم على الموافقة على التسوق من المخزن العسكري في الحبانية . لم يكن من الامور المناسبة لهم ان يقوموا بذلك ، بيد انهم حصلوا على استثناء . ولبرهة من الوقت ، فان السياسيين الوقورين ، والذين اتصف بعضهم بالبدانة ، ظهروا في السراويل القصيرة المصنوعة من قماش الخاكي والقمصان البيضاء ذات الاكمام القصيرة التي يرتديها رجال الطيران عندما يكونون بعيدا عن الواجب !

ذكريات لورنس

جرى اعطاؤهم خياما في احد بساتين النخيل خارج المعسكر للمساعدة على ايجاد جو من الاستقلال . وهناك تعرضوا الى القصف بالمدافع الرشاشة من طائرة ميسر سمث[10] وبينما كانوا ينهضون من الارض ببطء بعد ذلك ، وهم ابعد ما يكونون عن الشعور بالسعادة ، قال الوصي بلا مبالاة : «من منكم يريد ان يعود ادراجه الى فندق الملك داود - ومن منكم يريد الاستمرار معي للذهاب الى بغداد ؟» ولكن في صباح اليوم التالي وجدتهم قد ذهبوا ، ليس للقدس ، بل الى بناية على ضفاف بحيرة الحبانية كانت تستخدم من قبل الخطوط الجوية الامبراطورية .

وكان الوصي مشغولا دوما في استجواب «الاسرى» اي الرجال الذين وقعوا بايدي الطابور البريطاني والمتطوعين[11] . اما انا فقد نلت التشجيع

١٠- طراز مشهور من الطائرات الحربية الالمانية .

١١- يقصد قوات «الليفي» .

من قبل السلطات البريطانية لانفاق المال ونلت اعتمادا ، استخدمته في الحصول على سيارات للوصي وحاشيته لتقديم دفعات طارئة من النقد الذي سيعيد العراق دفعه في وقت لاحق .

كان هناك امل في ان تتمكن ، بمساعدة المال ، من «اثارة القبائل» تأيدا للوصي ، وكان يقال : «لدينا اسلحة قليلة باستثناء واحد ـ المال» . ولقد شعرت بانني استحق اللوم لعدم الانفاق بسخاء ، بيد ان اثارة القبائل في ذلك الحين كانت مسألة تدخل في نطاق المستحيل . ويجب ان يكون هذا سببا في خيبة أمل اولئك الذين رسموا في اذهانهم صورة لتكرار حملة لورنس اثناء الثورة العربية[١٢] ـ كتلة متحركة بعنف من جنود الهجانة على ظهور الابل تزحف عبر الصحراء ، والوصي في وسطهم ، وكذلك انا ، مع حقائب رنانة من الجنيهات الذهبية عند مقدمة سرجي ، محاطا بحرس يرتدون الملابس الزاهية ... هذا هو الشكل الذي يمكن ان يكون قد بدا امام عيونهم !

بيد ان الحقيقة التي تخيب الامال ، ان ذلك الوقت من السنة كان غير مناسب للتعبئة في الصحراء ؛ فأثارة رجال القبائل تتطلب عدة اسابيع ، وهم لا يرغبون في الانتفاض دون اسلحة من احدث طراز ، فقد جربوا المعدن ؛ من المدافع الرشاشة الى الطائرات وهم يعرفون انه لا يوجد أمل في كسب معركة امام قوات مجهزة جيدا . صحيح انه من الممكن تجنيد البدوي وتدريبه كما حصل في الفيلق العربي الاردني ، لكن ذلك يتطلب وقتا بينما كنا نحن نسابق الزمن .

١٢ـ في «الحجاز» عام ١٩١٦ .

والبدوي ، بحكم الظروف او الحاجة ، يستقر الى جانب ماء دائم في الصيف ، وبخلاف ذلك فان حيواناته تهلك عطشا ، والصيف العربي قد حل بيننا فعلا . اما اولئك الذين يغادرون خيامهم فيجب ان يكون لديهم طعامهم ومأؤهم الخاص علما بان مقادير الطعام في خيام البدو تكون منخفضة في شهر مايس عادة . وهم يتسوقون من «موانئهم» اي المدن على حافة الصحراء في مطلع الخريف واذا وجد رعي في الصيف فانه قليل ، ولا ننسى انهم يحبون مناقشة الافكار الجديدة على مهل ؛ لذا فان ايصال الرسائل الى الشيوخ الذين لايسافرون كثيرا ايام الحر الشديد سيستغرق عدة ايام ، كما ان وصولهم الينا سيتطلب وقتا اطول .

كنا نعرف

اختفت هذه الخطط ، وبدلا منها اشترينا في فلسطين سيارات وباصات واكترينا حراسا لمرافقتنا وسواقا .

اما استغلال القبائل المقيمة على النهر[١٣] فقد كان مسألة مختلفة ، فتطلعنا الى ضمان ولائها ودفعنا المال وبعثنا الرسل لها ، وهكذا لم ينهض اي منها لمساعدة رشيد عالي .

وفي غضون ذلك ، ساد لندن قلق يمكن تبريره ، والقى «تشرشل» خطابا في مجلس العموم عن وضع الحرب في ٧ مايس قال فيه : «اشار البعض الى ان ما حدث في العراق هو مثل آخر على فشل استخباراتنا ودبلوماسيتنا . ان صديقي المحترم والشجاع العضو نوكس قد تساءل عن ذلك رغم انه تصرف بطريقة ودية تماما .

١٣ـ الفرات .

«لقد جرى اخبارنا أن وزارة الخارجية لم نعرف اي شيء على الاطلاق عما يدور في العالم ، وان منظمتنا[١٤] لم تكن مستعدة كلية لمجابهة وضع الحالي ، بيد انا عرفنا ، وبصورة جيدة للغاية ، ما كان يجري في العراق ، ومنذ وقت طويل يعود الى مايس الماضي ، قبل سنة ، بدأت وزارة الخارجية بطلب قوات لارسالها الى هناك لحماية خط المواصلات .

«لم تكن لدينا القوات ، وكل ما استطعنا ارساله كان ملزما بالتوجه الى وادي النيل[١٥] . ونتيجة لفقدان القوات ، صار من الصعب للغاية ايجاد مخرج ضد الدسائس البينة الموالية للمحور من جانب رشيد عالي الذي قام بعد ابعاده عن السلطة بناء على الحاحنا ، بتدبير انقلاب ضد الوصي والحكومة الشرعية للبلاد ، ومن الواضح ان هدفه جعل كل شيء جاهز امام الالمان حال وصولهم الى العراق طبقا للبرنامج .

«وعلى اية حال ، ففي هذه الحالة ، فان الحكومة البريطانية السيئة المعلومات ، الكسولة والمتسمة باللين والوداعة ، كما اصبحت بعد حرمانها من مواهب بعض الاعضاء الثمينين ، قد احبطت هذه المؤامرة في الحقيقة ، فقبل ثلاثة اسابيع نزلت قوات بريطانية قوية ، يجري تعزيزها باستمرار من الهند ، في البصرة ، وتولت السيطرة على رأس الجسر البالغ الاهمية في الشرق ، والذي سنقاتل من اجله وبشدة ولوقت طويل دون شك ».[١٦]

١٤- الحكومة البريطانية .

١٥- عندما كانت معارك شمال افريقيا محتدمة بين الانكليز والايطاليين .

١٦- السجلات المطبوعة لمناقشات مجلس العموم البريطاني بالانكليزية والمعروفة باسم "Hansard" المجلد ٣٧١ ، ص ٩٤٢-٩٤٣ .

والواقع ، فان السفارة البريطانية لم تكن على أدراك تام للاحداث القادمة كما كان ينبغي ان يكون وان رشيد عالي لم «يبعد من السلطة بناء على الحاحنا » ، انه بذل اقصى ما في وسعه لان يؤخر ، او يحول ، حتى اللحظة الاخيرة دون وصول ومرور قواتنا الى العراق ، رغم ان ذلك كان منسجما كلية مع معاهدة ١٩٣٠ .(١٧)

ولقد بدا ان قائد القوات البريطانية القادمة من الهند ، عند وصولها الى البصرة في اعقاب الانقلاب ، كان يمعن النظر في ان «يقاتل بشدة ولوقت طويل» كما اشار المستر تشرشل في مجلس العموم ، وربما يعود السبب في ذلك الى ان الجيش البريطاني والهندي تطلب ثلاث سنوات للوصول من البصرة الى بغداد ، خلال المناطق الريفية القبلية ، في غضون الحرب العالمية الاولى .

وعندما اقترحت عليه في البصرة ، ان يقوم قسم من قواته بالزحف على بغداد سريعا ، خلال الصحارى وبخاصة البعيدة عن الانهار الى الغرب ، مستولية على كل مركز صحراوي للشرطة وبئره الصحراوي بدوره ، فان الفكرة قوبلت بالرفض في التو واللحظة .

مضيت في طريقي الى فلسطين بطائرة مدنية هولندية ، وانا مسرور لقيامي بذلك ؛ فالزحف من فلسطين عبر الصحراء وصل بغداد في شهر ،

١٧- اننا نود ان نشير الى خطاب «تشرشل» في مجلس العموم اعلاه والذي بين فيه ان الانكليز كانوا ينوون احتلال البصرة منذ مايس ، ١٩٤٠.

وقد انجز باصابات قليلة ، وخلال ذلك بأسره لم تتحرك القوات في البصرة الا بالكاد .

افكار

كانت حامية الحبانية ، كما علمنا ، قد قاتلت بشجاعة ؛ ففي البداية اتخذ الثوار لهم موقعا على التلال المطلة على المعسكر ، وقامت طائراتهم بقصفه . كانت هناك جبهة محيطها سبعة اميال تتطلب الدفاع عنها ، ولو لم تبادر الحامية الى مهاجمة العدو وابعاده عن بواباتها لكانت قد ذوت من الوجود . اعيد استخدام مدفعين قديمين من طراز «هاوتزر» منصوبين للزينة عند المدخل ، باعتبارهما المدفعية الوحيدة لدى المدافعين الذين كانت طائراتهم لا تعدو ان تكون مجرد مكائن قليلة وقديمة للتدريب .

كانت الروح المعنوية والمبادرة من جانب الحامية الصغيرة هي التي ادت الى انقاذها ؛ فقد شنت غارة جوية ، واستولت مرة اخرى على الموقع المرتفع المتحكم في المعسكر . ومن ثم ، وبقيادة الميجر «اليستير غراهام» من سرية الفرسان الملكي وكتيبته من الانوريين ، تم شن هجوم على الجسر الوحيد عبر الفرات فاستولت الكتيبة عليه ودخلت قصبة الفلوجة على الضفة الشرقية ، لقد تمسكوا بها ، ومعهم الكتيبة التابعة للملك وردوا الهجمات المضادة ، وعندما وصلت القوة من فلسطين الى الحبانية ، فان الوصي ونوري طرحا افكارهما مستندين على معلوماتهما المحلية . وكان نائب مرشال الجو قد استقبل طائرتنا في الحبانية ، واصطحبنا مباشرة الى

منزله حيث التقينا بالميجر ـ جنرال كلارك ، قائد قوة الانقاذ ، وهيئة ضباط ركنه ، وبعد دقيقة من تقديمهم لنوري باشا ، جثا معهم على الارض محدقا في الخرائط واوامر العمليات •

وسرعان ما نصب جسر متحرك على الفرات مما ساعد احد الطوابير على الالتفاف من حول الفلوجة والفيلق العربي [١٨] ، وذلك لحرمان الثوار من استخدام الطريق المؤدي من بغداد شمالا اثناء النهار •

ارض تاريخية

كان الجنود الانكليز ، الذين اجتازوا الفرات ، يسيرون في اعقاب جيوش الماضي الشهيرة ، فهنا زحف جنوبا ،على ضفة الفرات اليسرى نحو بابل ، كورش وجنوده والعشرة الاف اغريقي وقد يزيدون على ذلك• وعلى مقربة من هنا ، بين الفلوجة والمسيب ، كان موقع معركة سوناسا التي استدار الاغريق منها نحو البحر الاسود ووطنهم • لقد كنا فوق ارض تاريخية وستكون استعادة النظام في العراق حادثة مهمة وتاريخية وكذلك في الحرب في الشرق •

قام الالمان ، فعلا ، بنقل الطائرات الى العراق عن طريق حلب وارسلوا المستشارين العسكريين للثوار • وكان من المقرر ان يقف كبار الثوار في استقبال احدهم ، ـ هو اكسل فون بلومبرغ ، الطيار البارز ونجل الفيلد

١٨ـ يقصد الجنود البدو من الاردن بقيادة الجنرال «جون باغوت غلوب» او «ابو حنيك» وقد رفض كثير منهم دخول العراق وهددوا باستخدام السلاح ثم ارغموا على ذلك •

مارشال[١٩] ببغداد يوم ١٢ مايس • وعندما اوشكت طائرته على الهبوط ، كان شخصا ما غير معروف من جانب الطيار او لجنة الاستقبال اطلق رصاصة نحوها بحيث اصاب الراكب في الحنجرة ، ولما هرع العراقيون الى امام للترحيب لم يجدوا غير الجثة المنطاة بالدماء •

كا الروح المنوية لقادة الثوار منخفضة فعلا ، ويبدو ان هـــذا الحادث قد سجل نقطة التحول • بعد ذلك بأيام قلائل ، وبينما اخــذ الطابور البريطاني بالاقتراب من بغداد ، شرع قادة الثــوار بالانسحاب بعيدا ، الى طهران وبالتالي ، مثل رشيد عالي نفسه الى المانيا •[٢٠]

مهمـــة في الرياض

وفي الايام الاولى للثورة ، دمرت القوة الجوية الطائرات العائــدة للثوار ؛ ومنذ ذلك الحين ، لم تعرف التعب في رمي الرسائل لشيــوخ



ارشــد العمري

١٩ـ مشير الميدان • احد اخلص اتباع هتلر ، شغل منصب القائد العام للقوات الالمانية المسلحة ثم صار وزيرا للحربية حتى استقالته في كانون الثاني ١٩٣٨ ، لاسباب شخصية •

٢٠ـ لم يتوجه الى المانيا ، بعد رشيد ، غير الحاج امين • اما باقي قــادة الثورة والمشاركين فيها فقد وقعوا جميعا في طهران وغيرها بأيدي الانكليز ونكل بهم شر تنكيل •

العشائر[٢١] ، وفي احدى المناسبات ، أسقطت رسالة على القصر بأمل استلامها من جانب الملكة[٢٢] . والواقع فان الملك وسيدات الاسرة كانوا قد نقلوا نعلا الى اربيل من جانب الثوار حيث اقاموا لدى احد الوجهاء . وقامت القوة الجوية ايضا برمي رسائل من الوصي الى امين العاصمة[٢٣] ومدير الشرطة[٢٤] واهالي بغداد .

٢١ـ وهذا نموذج من الرسائل : ايها الشعب العراقي النبيل ، تعلمون ان فئة من المتمردين العسكريين ، يرأسهم رشيد عالي ، ومن معه من المحرضين الذين باعوا ضمائرهم ومصلحة بلادهم بالمال الاجنبي ، قد اخرجوني بالقوة عن واجباتي المقدسة كوصي على ابن اختي ، ملككم الصغير المحبوب . لقد حاول اولئك الاشرار بخداعهم ودسائسهم ان يسمموا الافكار بالعراق فيحولوه عن نعمة السلام الى اهوال القتال الخاسر . إن واجبي واضح ، فانا راجع كي استعيد شرف وطننا المثلوم واقوده ثانية نحو الرفاه المأمون تحت ظل حكومة شرعية ، دستورية ، وهنا انا ادعو كل ابناء العراق المخلصين ان ينبذوا تلك العصابة ، حقنا للدماء الزكية ويعملوا معي على اعادة الحرية والاستقلال لبلادنا المحبوبة .

ايها العراقيون ! امنعوا ابناءكم واخوانكم عن خوض هذه الحرب التي جرها على رؤوسكم مال الاجانب ودسائسهم فهم يفكرون فقط بمطامعهم ومصالحم الانانية .

ايها الضباط والجند ! ارجعوا الى اماكنكم بسلام وانتظام ، وانتظروا اعادتي للعراق استقلاله وحكمه الدستوري ، وليعش جلالة الملك فيصل الثاني .

الوصي على عرش العراق ـ عبد الاله .

٢٢ـ عالية ، قرينة غازي ووالدة فيصل الثاني .

٢٣ـ ارشد العمري .

٢٤ـ حسام الدين جمعة .

لم يحصل الثوار على جميع المساعدات المسلحة التي توقعوا ان تأتي اليهم من المانيا[٢٥] ، لذا فان رشيد عالي بعث وزير خارجيته ناجي السويدي لمقابلة الملك ابن سعود بأمل ان يتقدم لمعاونته • غير ان ابن سعود لم يخدع اذ قال لناجي : لو انني رأيت منفعة للعرب من تصرف رشيد عالي ، لكنت الى جانبه ودون ان تأتي أنت طالبا مساعدتي •

تسأل : «هل يريد مني رشيد عالي ، وانا الذي تقدم في السن ، ان اكون خائنا لاولئك الذين مدوا لي يد العون عندما كنت شابا ؟ عد وقل لسيدك : هل من الافضل الامساك بمخلب نسر جائع من مرافقة اسد شبعان ؟» ثم التفت الى حاجبه وقال : «اعطه واحدة من سيارات اليوك هذه هدية ثم اشرف على أنصرافه عنا بسرعة •»[٢٦]

اشارة لاسلكية

ومع اقتراب نهاية مايس ، كان الشك ما زال يساور الجنرال البريطاني بشأن تحقيق نجاح مبكر ، كان يقول بان العدو «متحصن» وتسنده المدفعية في الكاظمين ، وكان الطابور البريطاني على بعد ثمانية اميال غربي بغداد في اصلاح الجسور على القنوات ، والبلاد اعدت نفسها «لدفاع بالاسلحة الرشاشة التي يمتلك العدو الكثير منها •»

وعلى أية حال ، فان اذاعات الثوار اظهرت انخفاضا سريعا في الروح

٢٥ـ الواقع ، شغل الالمان عن مساعدة العراق بسبب غزوهم جزيرة «كريت» شرقي البحر الابيض المتوسط •

٢٦ـ لابد وان يكون الكاتب قد استقى هذه الاقوال من مصدر سعودي مطلع •

المعنوية • ووسط الحماس المتدفق ، انهمك نوري وداود الحيدري في أعداد نص منشور رمته القوة الجوية الملكية وهو يدعو الناس الى الانتفاض على الثوار ودعم الوصي [٢٧] ، وفي ٣٠ مايس اخبرتنا برقية



داود الحيدري

٢٧ـ وهذا هو المنشور :

الى الشعب العراقي النبيل :

كنت وعدتكم في بيان سابق بانني عازم على العودة الى العراق وتخليص البلاد وانقاذه من ويلات الحرب التي اودت بكثير من ارواح شباب العراق البريئة ويتمت اطفالهم ، ناهيك عن الخسائر الفادحة في اموالهم • وها أنا اعود للعراق للتعاون مع الرجال المخلصين ، وممثلي الامة الحقيقيين ، لاعادة الحياة الهادئة ، التي كان يتمتع بها، والتي يحسد عليها ولتضميد الجروح العميقة الدامية التي سببتها تلك الفئة الطاغية ، تنفيذا لرغبات دول المحور مقابل الاموال التي قبضوها ولطرد اولئك الذين حاكوا الدسائس عن عمد وتصميم لجعل

من ايران أن رشيد عالي اجتاز الحدود ، وبعد وقت قصير استلمت اشارة لاسلكية من السفارة البريطانية ، هي الاولى بعد صمت طويل ؛ تعلن انه في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، فان مبعوثين عراقيين سوف يأتون الى الجسر الحديد على قناة الخر، على بعد ميل واحد غربي بغداد .

السلام عليكم

وهكذا ، في ساعة متأخرة من الليل ، توجه الميجر سينس ، وهو ضابط ، للقاء معهم وجاء معنا علي جودت وصباح السعيد . في العراء ، وعلى مسافة من موقع متقدم للخيالة الملكية ، كانت اصوات المدافع الرشاشة ما زالت تسمع بكثرة ، بيد اننا شققنا طريقنا الى امام حتى وصلنا بعض كمائن الدبابات الى الغرب قليلا من الجسر الحديد(٢٨) ، خفت صوت اطلاق النار المتقطع حالما وصلنا الى هناك وساد الصمت باستثناء نقيق عدد لا يحصى من الضفادع وحفحفة راية السلام التي جلبناها معنا ، وهي عبارة عن شرشف سرير للنوم مشدود على صارية حملها سائقي .

انتظرنا ، وانتظرنا ، وفي بعض الاحيان كنت اهتف «السلام عليكم» لادخال الطمأنينة في نفس اي مبعوث ربما كان قد توارى هناك . لم نسمع اي رد من الظلام بينما ازداد صوت الضفادع شدة وقوة ، وفي النهاية جاء

بلادنا مسرحا للحرب ، فآمل ان يساعدني كل فرد من العراقيين على تحقيق هذه المهمة الشاقة في سبيل حكومة اصلح ، لا للموظفين ، وضباط الجيش ، والشرطة فقط ، بل السادة الاشراف والعلماء ، وشيوخ العشائر ايضا . هذا والله ولي التوفيق ، «مطبعة المستقبل ـ القدس» ٢٤ ايار الوصي على عرش العراق ـ عبد الاله .

٢٨ـ جسر الخر .

ضابط استخبارات من مقر اللواء[٢٩] حاملا رسالة تقول بان المبعوثين سيصلون في الساعة الرابعة وليس الثانية . كان الوقت بالفعل الرابعة الا خمس دقائق .

لقـاء الاصدقاء

بغتة ، اشتعلت المصابيح الامامية لسيارة وبدا كما لو انها تبتعد عنا ، ثم اتجهت نحونا وعلى مسافة قريبا للغاية . كانت السيارة تتحرك بصعوبة بالغة عبر الحقول بين مصائد الدبابات . توقفت ، وحلت المصابيح اليدوية التي تعمل بالبطارية محل المصابيح الامامية ، وهنا قلت لايان سينس : «ينبغي علينا ان نتمسك بالدماثة ولكن مع عدم ابداء اية دلائل ودية . اننا قد نكون ملزمين بالتفاوض حول بعض النقاط الصعبة معهم في وقت لاحق .» وما ان انتهيت من قولي حتى ظهر المبعوثون .

جاؤوا يتعثرون من قاع مصيدة الدبابات وفي مقدمتهم الرائد غازي الداغستاني . رجب بي غازي بحرارة فقابلته بنفس الشعور لانني اعرفه جيدا اذ كثيرا ما خرجنا في رحلات للصيد باستخدام الصقور[٣٠] لابد ان سينس قد اعترته الدهشة لما رآه بيننا ،غير انني التقيت بواحد من اصدقائي بدلا من ضابط غير معروف ، كما كنت اتصور .

ان غازي هو نجل محمد فاضل باشا الداغستاني ، وهو مشير ميدان عثماني كان في السابق قائدا للحرس الشركسي للسلطان عبدالحميد ، كما

٢٩- من الواضح انه يقصد اللواء العراقي المرابط في منطقة الحارثية وما يجاورها .

٣٠- كان «دي غوري» قد عمل في العراق من قبل .

اصبح واليا وقائدا عاما في الولايات العراقية[٣١] ، واستقر هناك في نهايـة خدمته حين تطوع في الحرب العالمية الاولى وقتل في المعركـة امـام الكـوت .[٣٢]

وقضي الامر !

ومن بين اجداد غازي ، البعيدين نسبيا ، الشيخ شامل ، بطل وحامي حما شرقي القفقاس ضد المغول والذي قدمه «تولستوي» في احدى قصصه باسم «حاجي مراد» ، كانت العائلة تحكم «داغستان» وهي البلاد الواقعة الى الشمال من شرقي القفقاس ، في الجبال المحاذية لبحر الخزر .



غـازي الداغسـتاني في موقـف بغـداد بعـد ثـورة ١٤ تمـوز ١٩٥٨ .

٣١ـ يقصد ولايات «بغداد» و «البصرة» و «الموصل» .

٣٢ـ كان ذلك اثناء معركة العثمانيين مع الانكليز عام ١٩١٥ في «الصويرة» .

ومثل جميع افراد عائلته ، كان غازي فاتح البشرة طويل القامة :

وبرز امامنا هيكلا مؤثرا في النفس بينما كانت عيناه تومضان كالبرق على ضوء مشاعلنا ، وبينما كنا نتبادل الحديث ، اطفئت الانوار ؛ ذلك ان الفجر بدأ بالطلوع فوق المنطقة الريفية المغمورة بالمياه ، كما ان عزف الضفادع الخشن ذوى وانتهى .

طلبت ، اولا ، الذهاب الى السفارة لمقابلة السفير السير «كينهان كورنوالس» اذ اننا لا نستطيع وضع الشروط دونه ، وعندما جاء الجنرال «كلارك» ماشيا في هذه اللحظة على الطريق وحيدا ، وفي اعقابه ، نائب مرشال الجو وافق على ذلك .

توجهنا بالسيارة الى السفارة عبر الأزقة والشوارع المهجورة ، فوجدنا البريطانيين في الداخل وهم ما زالوا يغطون في النوم ، فشققنا طريقنا الى غرفة منام السفير . اجتزنا جسد حارسه وخادمه الذي كان ممددا امام الباب ، فقفز ليعرف جلية الامر قبل ان يفتحه لنا .

ومن ثم وبينما اخذ السفير بارتداء ملابسه نزلنا للتحدث الى الرجال والنساء الذين نهضوا من فراشهم وهم الذين كانوا سجناء هذا الوقت الطويل ، عرضوا علينا قدحا بعد آخر من الشاي وترددت عبارة : «تناولوا قدحا من الشاي» خمسين مرة في غضون دقيقة و «اين الجيش» بما لا يقل عن ذلك .

خرج السفير لملاقاة الجنرال كلارك ، وهناك على قارعة الطريق ، تم التوصل الى الشروط بسهولة وسرعة ووقع عليها العميد (الزعيم انذاك)

اسماعيل نامق والعميد مصطفى نصرت ، ونور الدين محمود وهو مقدم ركن والجنرال جورج كلارك ونائب مرشال الجو جي • اي • داليباك •[٣٣]

وفي اليوم التالي ، سقطت بغداد ثانية تحت الاحتلال الانكليزي •



نوري السعيد اثر تاليفه وزارته الرابعة بعد عودته للسلطة

ـ٣٣ De Gaury, Gerald, Three Kings in Baghdad, pp. 118-127.

١١

بين مصر والمانيا

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية في مطلع ايلول ، ١٩٣٩ ، كانت الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في «مصر» و «العراق» متشابهة الى حد كبير ؛ فقد تم عام ١٩٣٠ عقد معاهدة بين «العراق» و «بريطانيا» حصل الاول بموجبها على اقرار دولي من الاخيرة بانه نال الإستقلال مما ادى الى دخوله «عصبة الامم» بعد ذلك بوقت قصير .

غير ان هذه المعاهدة التي ابقت على قاعدتين عسكريتين «للحليفة» في كل من «الشعيبة» و «الحبانية» وعلى وجود خبراء عسكريين انكليز في الجيش العراقي مع ضمان استمرار تجهيزه بالاسلحة البريطانية فقط[١] ، ادت الى عكس المطلوب ؛ اذ تفاقمت الشكاوى من هيمنة الانكليز على كل شيء وكانت النتيجة ان وصلت الامور ذروتها بانفجار ثورة مايس عام ١٩٤١ .

نفس الامر

واذا ما انتقلنا الى «مصر» نرى انه ما ان حلت سنة ١٩٣٦ حتى توصلت هي الاخرى الى معاهدة لا تختلف في شيء عن مثيلتها العراقية ـ الانكليزية الا من حيث التفاصيل[٢] ؛ فقد تم الاعتراف باستقلال «مصر»

---

١ ـ حاول «بكر صدقي» كسر هذه القاعدة بعد انقلابه عام ١٩٣٦ وافلح في ذلك جزئيا .

٢ ـ عقدت المعاهدة على يد ائتلاف ضم جميع الاحزاب المصرية وعلى رأسها «الوفد» بزعامة «مصطفى النحاس» ولم يمتنع عن ذلك سوى الحزب الوطني .

ودخولها في «عصبة الامم»[٣] مع الابقاء على وجود عسكري بريطاني في «القاهرة» بالذات ومنطقة «قناة السويس»[٤] التي كانت تعتبر شريان الحياة الحيوي بالنسبة للامبراطورية البريطانية ، وتقرر نفس الامر فيما يتعلق بتسليح الجيش المصري وكذلك استمرار هيمنة الخبراء الانكليز على تدريبه .

بداية

بيد ان الامور لم تسر كما اراد لها واضعوا تلك الخطط ، فقد بدأت معارضة معاهدة ١٩٣٦ في «مصر» بعد حوالي عامين من عقدها ، وتوزع تيار المناهضة هذه بين جناحين : الاول الضباط من ذوي الرتب المتوسطة والصغيرة الذين تعلقوا بالفريق المتقاعد «عزيز علي المصري» نظرا لما لعبه من دور بارز في تأسيس جمعية «العهد» العربية اواخر ايام الدولة العثمانية[٥] ، اضافة الى اشتراكه في حرب المقاومة الليبية ضد الغزو الايطالي (١٩١٢ - ١٩١٣) وتوليه قيادة الجيش العربي الحجازي آبان ثورة الشريف «حسين» في «مكة» عام ١٩١٦ .

اما الجناح الثاني فكان مدنيا ، برز على الاكثر في صفوف حزب «مصر الفتاة» الذي اوجده «احمد حسين» عام ١٩٣٣[٦] ؛ اذ سرعان ما تحول الى تنظيم سياسي جاد يمثل الاتجاه الوطني للجيل الطالع ، وقد

---

٣ - والغاء الامتيازات الاجنبية .
٤ - حول مدينة «الاسماعلية» .
٥ - في العاصمة «اسطنبول» .
٦ - وتقول بعض المصادر التاريخية ان ذلك تم بالاتفاق مع «عزيز المصري» .

عمد الحزب الى حشد الشباب في منظمات شبه عسكرية[٧] واخذ بالمطالبة بان تلعب «مصر» دورها تحت الشمس وان توحد الامة العربية سياسيا واقتصاديا وتشريعيا ، وان تتحرر من كل نفوذ وسيطرة اجنبية ... فكان هذا اول شعار يلقى تأييدا واسع النطاق مما كان له تأثيره في تطور الاحداث التي بلغت ذروتها بثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ .

مشاعر متناقضة

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية ، كانت رئاسة الحكومة العراقية بيد «نوري السعيد» الذي بادر في الحال الى قطع العلاقات مع «المانيا»



احمد حسين

٧ - قريبة من نظام الفتوة .

وكذلك فعل «علي ماهر» رئيس وزراء «مصر» وان كان الاخير قد اعلن ، اكثر من مرة ، انه فعل ذلك بناء على ضغط بريطاني قوي خلافا «للسعيد» الذي ظل يتباهى بما قام به .

وبدا هذا التناقض واضحا في مشاعر رئيسي الحكومتين عند اعلان «ايطاليا» الحرب على الحلفاء في ١٥ حزيران ١٩٤٠ ؛ فقد أصر نوري على وجوب اتخاذ نفس الاجراء ضد الاخيرة ايضا ، بينما رفض «ماهر» ذلك بشكل قاطع قائلا بانه لا يرى ان معاهدة ١٩٣٦ تلزمه بذلك ، اضافة الى ضغط الرأي العام وعدد من المستقلين داخل مجلس الوزراء .

عمــل مسلح !

ولما فاتحت السفارة البريطانية الملك «فاروق» بأن يلجأ الى التخلص من رئيس وزرائه ، قابل الطلب بالتملص على اساس عدم وجود ما يبرر هذا الاجراء . واذا كان الانكليز قد افلحوا في تحقيق ما يريدون بطرق اخرى، فان الاشاعات اخذت تتردد من جانبهم ومن يواليهم بان هناك «رابطة» بين «المحور» و «المصري» و «الماهر» و «احمد حسين» وحتى الملك نفسه !

وعلى اية حال ، فقد ذكر «احمد حسين» في مذكراته التي تحمل اسم «الدكتور خالد» بان حزبه اخذ يعد نفسه للعمل المسلح ضد الانكليز بعد سقوط فرنسا في حزيران ١٩٤٠ وحين كان متوقعا هزيمة الانكليز . وليس من قبيل الصدف ان يتم هذا العمل في حزيران ١٩٤٠ وان يرفض «ماهر» قطع العلاقات مع «ايطاليا» في نفس الموعد .

ويضيف «حسين» الى ذلك قوله : «ان الحزب اخذ في تلك الاثناء

يجمع الاسلحة في كل مكان ويخزنها وانه جرى اعداد خطة للعمل ضد الانكليز في اللحظة التي يشرع الالمان في الهجوم على الجزر البريطانية ، وتفجير ثورة شاملة • والخطة تقضي بايفاد بعض المنظمين المسلحين بالمسدسات الى القرى المحيطة بمجالس الاقاليم والاستيلاء على البنادق والذخيرة الموجودة في القرية وفي بيت كل عمدة وحشد اهالي كل قرية للزحف على المراكز ، وبعد الاستيلاء على هذه يعلن الثوار مباشرة السلطة باسم قيادة الشعب الثورية ••••

حقائق

نعود الى موقف «فاروق» الذي مازال موضع اخذ ورد بين المصادر الاجنبية والعربية ، وان اخذت الوثائق التي برزت الى الوجود مؤخرا باماطة اللثام عن وجود نوع من الصلة ، وان كانت غير مباشرة ، بين الملك والالمان والايطاليين وصلت ذروتها باقتراح مرفوع الى «هتلر» شخصيا • اما ان يكون دافع «فاروق» لذلك هو المحافظة على عرشه او انه يعود الى وجود علاقة بين مؤيدي الوقوف ضد «بريطانيا» فأمر ما يتطلب المزيد من البحث، الا انه ينبغي عدم اغفال الحقائق التالية اذا اردنا تقديم صورة واضحة للقاري• :

اولا : كان «المصري» مرشدا «لفاروق» عندما كان يتلقى الدراسة في بريطانيا قبل وفاة والده «فؤاد» عام ١٩٣٦ وتوليه العرش بعده ، كما ان هناك الكثير من الدلائل التي تشير الى دوره في تعيين «المصري» مفتشا عاما للجيش قبل قيام الحرب العالمية الثانية بوقت قصير •

ثانيا : تم اعتقال «ماهر» طوال سني الحرب على اساس خطورته على المجهود الحربي البريطاني .

ثالثا : خلال صيف عام ١٩٤٠ وبداية ١٩٤١ برز في صفوف الجيش المصري تشكيل يدعو الى القيام بثورة مسلحة ضد الانكليز بالاستفادة من الوضع شبه المنهار الذي وصل اليه هؤلاء ، وكان هذا التشكيل قد اقام رابطة مع الالمان .. ومن الطبيعي ان فكرة هذا التنظيم لم تكن بنت ساعتها ولابد ان يكون لدوائر القصر علم بها وبالتالي محاولة الاتصال بالقائمين به بشكل او بآخر .

وقائــع

قال «شيانو» وزير خارجية «ايطاليا» أنذاك في مذكراته الموســومة «يوميات شيانو»[8] بان «مراد السيد احمد» سفير «مصر» في «رومـا» قابله ذات يوم وسأله عما اذا وقعت الحرب بين «ايطاليـا» و «بريطانيـا» ووقفت «مصر» موقف الحياد بالرغم من وجود معاهدة ١٩٣٦ ، فهل تفعل ايطاليا شيئا لتأييد موقف مصر ؟

ولم يعط الوزير جوابا شافيا وان ترك السفير يعتقد بان ايطاليا ستفعل ذلك . ويلاحظ بهذا الصدد ان «القصر» في ذلك الحين كان يعتبر السفراء ممثلين شخصين للملك اكثر منهم للحكومة القائمة .

وفي مايس ١٩٣٦ زار الجنرال «بالباو» احد القادة العســكريين الايطاليين «مصر» فاستقبلته الحكومة رسميا ، وفي نفس الوقت راجــت

---

٨ - زوج ابنة «موسوليني» .

اشاعات ايطالية وبريطانية تناقلتها الاوساط المختلفة فحواها ان الجنـــرال اتصل بالقصر مقترحا ايله بامكانية عقد معاهدة عدم اعتداء بين البلديـــن ، وقد نفى «محمد محمود» رئيس الوزراء تلك الشائعات في حينه .



عزيـــز المصري

هذا وقد عثرنا في وثائق وزارة الخارجية الالمانية على رسالة موجهة من «ايتل» الوزير الالماني المفوض في «طهران» تفيد بان «سعيد تيمــور» سفير «مصر» هناك وهو من اقارب «فاروق» وموضع ثقته قد زاره ذات يوم من عام ١٩٤١ ونقل له سؤالا موجها من الاخير الى «هتلر» شخصيا ، ويدور

السؤال حول موقف المانيا من «مصر» في حالة اعلانها الحياد بين الطرفين المتنازعين وكذلك مبادرتها الى اعادة العلاقات التي تطعت في ايلول ١٩٣٩ .

غير ان الوزير المفوض لم يتلق ردا من حكومته بسبب من احتلال الحلفاء للعاصمة الايرانية اواخر عام ١٩٤١ ، الا انه يوجد هامش بخط وزير الخارجية «ريبنتروب» يحذر من ان الانكليز سيبادرون في الحال الى اسقاط «فاروق» وربما سيؤدي هذا العمل الى وضع البلاد كلها تحت حكمهم العسكري المباشر كما فعلوا في الحرب العالمية الاولى .

نعود الى احمد حسين : «وكنا نعلق الامال على ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق في مايو (مايس) ١٩٤١ ، غير ان الثورة انهارت قبل ان تتمكن من القيام بأي عمل ايجابي ، وهكذا تم اعتقال المصري وانا مع سائر اقطاب الحزب مع بعض ضباط الجيش وبقينا في المعتقلات حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية .»

١٢

الجاسوس الـزئبقي

كان رجلا خجولا حتى اثناء احتسائه الشراب ، وكان لايستطيع النطق دون تلعثم حتى ولو امكنه ذلك ، كان وسيما وان اتسمت وسامته بطابع الحزن ، احبه الرجال وتمنت الحسان القيام بدور الام بالنسبة له .

كان اسمه «هارولد ادريان رسل فيلبي» بيد ان اسمه بين الجميع كان «كيم» وهي كنية تعيد الى الذاكرة ايام صباه في الهند «الكبلنغية»[١] الرازحة تحت حكم الراجات .[٢]

كان «كيم» مراسل الصحيفتين البريطانيتين الاسبوعيتين «الاوبزرفر» و «الايكونومست» ، ومن الطبيعي ان من يشغل هذا المركز المرموق لابد وان يكون مدعوا ، وزوجته الامريكية الينور ، الى مأدبة العشاء الممتعة التي اقامها «هيو غيلنكيرن بلفور بول» السكرتير الاول للسفارة البريطانية في «بيروت» مساء الثالث والعشرين من كانون الثاني ، ١٩٦٣ تكريما لنخبة من الاصدقاء البريطانيين والامريكان المعنيين بشؤون الشرق الاوسط ، بيد ان «الينور» وصلت بمفردها موضحة الامر بان قرينها اتصل بها تلفونيا واخبرها انه سيصل «متأخرا» .

شعور مريع

لم تتذوق «الينور» الا النزر اليسير من الطعام ، وكلما أخذ الليل

---

١ ـ نسبة الى «كبلنغ» شاعر الامبراطورية المعروف .

٢ ـ من امراء الهند المحليين .

بالزحف تجلى القلق على وجهها نتيجة لتخلف «كيم» عن الحضور ، واخيرا غادرت مكان الحفلة ذاهلة مما اثار حيرة الضيوف الاخرين ؛ كالمعروف ان «كيم» صحفي نشيط من المفروض ان قرينته قد كيفت حياتها على اساس تغيبه المفاجيء .

توجهت الزوجة القلقة الى بيتها في الطابق الخامس من عمارة في شارع «القنيطرة» وانتظرت حتى ما بعد منتصل الليل وسطا النوم على جفونها مرة او مرتين ثم استيقظت «بشعور مريع لم استطع ادراكه بان شيئا ما قد حدث لكيم» كما ذكرت فيما بعد .

هل انه في اعقاب قصة ؟ كان «كيم» حذرا في عمله حتى بالنسبة لها، ولقد اصبح مشغولا اكثر من اللزوم في الاسابيع الاخيرة واخذ مزاجه بالتأرجح بين الكآبة والحبور الهستيري ، وافرط في تناول المشروبات الى حد فاق المعقول .

صيحة استغاثة

وفي غضون الانتظار ، اخذت بعض الاحداث المعينة خلال الشهرين السابقين باتخاذ شكل جديد ، ومثير ، في بال «الينور فيلبي» ، كان «كيم» قلقا بشأن المال وقد تعاقد مع احد الناشرين في «نيويورك» واخر في «لندن» على وضع كتابين عن الشرق الاوسط ؛ بيد انه لم يحرز من التقدم في هذا المضمار سوى تكديس كومة من الورق واعداد بعض السطور الناقصة .

وكشفت «الينور» النقاب لاصدقائه ، فيما بعد ، انها استيقظت ذات ليلة لتجده جالسا على حافة السرير مغلقا عينيه وهو يحاول التلعثم بصيحة

استغاثة . وكانت تلك هي المرة الاولى التي تسمعه فيها يهمهم اثناء النوم ، وفي مرة اخرى ، كما افادت بعدئذ ، توجهت الى الحمام لتجده واقفا على المغسلة وهو يحدق في المرآة منتحبا ولما سألته عما حل به ، اجابها : «لاشيء عودي الى الفراش رجاء» .

اسم مألوف

وما ان حل الصبح ، حتى هرعت الزوجة الى احد الاصدقاء المقربين ؛ وهو رجل اعمال امريكي له علاقة مع الاوساط الحكومية العليا في «بيروت» وطلبت منه مساعدتها في البحث عن «كيم» ، وفي الحال بادر رجل الاعمال الى الاتصال بالعقيد «توفيق جلبوط» مدير الامن اللبناني .

كان اسم «فيلبي» مألوفا بالنسبة للعقيد ، ولهذا شنت قوات الشرطة حملة واسعة من التفتيش في جميع المستشفيات والسجون وفحص سجلات السفر من منافذ «لبنان» البرية والبحرية والجوية ولكن دون العثور على اي اثر ، وبذلك اختفى «فيلبي» من الوجود !

رسالة وداع

وفي اليوم التالي ، وبعد اقل من ثمان واربعين ساعة على مأدبة «بلفور – بول» اتصلت «الينور» هاتفيا برجل الاعمال الامريكي والسفارة البريطانية طالبة وقف التفتيش ، قائلة بانها توجهت الى فندق «نورمندي» وهو عنوانها البريدي ، فوجدت رسالة وداع من «كيم» الذي اوضح لها انه في سبيل تأدية مهمة صحفية والقيام «بجولة سريعة في الشرق الاوسط» واكد بان كل شيء على ما يرام .

هل الامر كذلك ؟ كانت «الينور» قد اسرت الى احد الاصدقاء بـان فرشة اسنان وماكنة حلاقة «كيم» وادواته الشخصية الاخرى ما زالت على حالها لم تمتد اليها يد انسان • ورغم ان رحيله المفاجيء قد دبر من قبل بحيث وجد مجالا لتدوين رسالته الوداعية ، الا انه لم يأخذ معه غير البدلة التي كان يرتديها ، واضافة لذلك فقد تأكد العقيد «جلبوط» ان «فيلبي» لم يغادر الاراضي اللبنانية باية طريقة مشروعة كما هو المألوف في حالـة تأديته المهام الصحفية ، وهكذا ، فان التبدل المباغت في موقف «الينور» لم يقنع احدا بل اثار المزيد من التساؤلات •

« الرجل الثالث »

واخيرا ، وفي اليوم الثالث من «اذار» ، اي بعد مرور اكثر من شهر على اختفاء «فيلبي» اعلنت صحيفة «الاوبزرفر» انها طلبت مـن وزارة الخارجية البريطانية ابداء سبل المساعدة في تعقب آثاره ، غير ان هـذا الوقت بالذات شهد اشتداد الاشاعات :ـ فيلبي في القاهرة ••• فيلبي فـي اليمن ••• فيلبي في السعودية ••• فيلبي في قبضة المخابرات البريطانية•• فيلبي بين يدي وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية ••• فيلبي قتـل نفسه !

بيد ان اكثر الاشاعات انتشارا كانت تؤكد على هروب «كـيم» الى «الاتحاد السوفيتي» ذلك انه لم يكن مجرد مراسل لصحيفتين ، بـل كان في السابق موظفا كبيرا في الاستخبارات البريطانية وشغل ، ذات مـرة ، منصب السكرتير الاول في السفارة البريطانية في «واشنطن» • وفي عـام



كيم فيلبي

١٩٥٥ ، وجه اليه الاتهام علنا من جانب احد اعضاء مجلس العموم بانه كان «الرجل الثالث» في قضية «بيرجيس» و «ماكلين» اي انه الرجل الذي وجه التحذير الى «غي بيرجيس» و «دونالد ماكلين» ولهذا ساعدهما على الهرب الى اوربا الشرقية قبل التمكن من القاء القبض عليهما بتهمة التجسس .

بيانات مضللة

في مطلع شهر اذار ، التف جمع من مراسلي الصحف البريطانية حول «البنور» وشعارهم التدخل فيما لا يعنيهم وعدم التورع عن اي

سؤال والامتناع عن اية مواساة او تعزية للسيدة التي جابهتهم بسلسلة بيانات مضللة • وردا على احد الاسئلة ، اجابت السيدة بأن «كيم» يقوم بجولة في الشرق الاوسط لاداء مهمة صحفية ، ولما سألها احدهم عن السبب في عدم معرفة الصحيفتين اللتين يعمل فيهما اي شيء عن مهمته ، طلبت من هذا تركها وشأنها •

كانت «الينور» تتصرف بموجب تعليمات من «كيم» ؛ فقد استلمت سلسلة من الرسائل بخط يده في اغلب الاحيان ومرسلة ، في الظاهر ، من مختلف مدن الشرق الاوسط واعدة اياها بانهما سيجتمعان مرة اخرى • واذا كانت الحيرة قد سيطرت على «الينور» نتيجة لسلوك زوجها ، نقد صاحب الحيرة رعب عندما اشار البريطانيون الى ان الرسائل واردة في الاصل من «اوربا الشرقية» غير انها علقت على ذلك بقولها انها لا تصدق الامر واصرت على ان «كيم» في سبيل اداء مهمة صحفية كما ذكرت من قبل •

« خطة عمل »

واخيرا وفي نيسان ، وردت رسالة اخرى من «كيم» • وللمرة الاولى تضمنت هذه الرسالة «خطة عمل» طلب من «الينور» التصرف بموجبها :

١ ـ عليها ابتياع بطاقة من شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار لها ولطفلي فيلبي الصغيرين (من زوجته السابقة) على الطائرة المتجهة الى «لندن» في موعد معين والا تحاول اخفاء الامر عن احد •

٢ ـ وبعد ذلك تتجه «الينور» الى مكتب الخطوط الجوية الجيكوسلوفاكية في «بيروت» حيث تجد بطاقة بانتظارها •

٣ ـ ستغادر الطائرة الجيكوسلوفاكية «بيروت» في طريقها الى «براغ» مع التوقف عدة مرات في اوربا الغربية وذلك في نفس الوقت الذي ستغادر فيه الطائرة البريطانية المطار تقريبا . وعليها ان تتجاهل نداء الرحيل الصادر من الطائرة البريطانية ، وتنضم بدلا من ذلك الى ركاب الجيكوسلوفاكية . وبعد ارتقاء الطائرة مع الطفلين ، سيتم اخبارها عن اتجاهها وبكلمات اخرى ، فان «الينور» لن تعرف الا بعد تحليق الطائرة ، ماذا كانت ستتجه الى الجانب الشرقي او الغربي للقارة الاوربية .

٤ ـ واخيرا ، اعطيت «الينور» طريقة للاتصال مع «كيم» في حالات الضرورة ؛ اذ كان عليها وضع اناء معين للزهور في نافذة المطبخ وحينئذ سيتصل بها «وسيط مؤتمن» في الحال .

استجابة

ومن الجلي ، اذن ، انه الرغبة في العيش مع «الينور» كانت مستحوذة على افكار «كيم» ولم تكن قرينته بأقل رغبة منه في ذلك ، بيد ان الرسالة الجديدة اعطت دليلا ملموسا على أن «كيم» قد يكون في اوربا الشرقية . وعليه فقد رفضت الاستمرار في تنفيذ الخطة ، وفي حيرة بين حبها لزوجها وشكوكها في انه لجأ الى الاتحاد السوفيتي ، اصبح الاسبوع التالي من حياتها بمثابة كابوس رهيب .

وبعد لاي ، وفي حالة يأس شديد ، قررت اللجوء الى الاشارة المتفق عليها ؛ فوضعت اناء الزهور المعين في نافذة المطبخ واعدت لنفسها قدحا

مركزا من الويسكي واشعلت سيكارة ثم انتظرت بأمـل ان يحضـر «الوسيط المؤتمن» بسرعة • وفي تلك اللحظات ، كانت سبل الظـلام في بداية زحفهـا •

وبعد اقل من ساعة واحدة ، قرع جرس الباب • وعندما فتحتـه ، وجدت امامها شابا مربوع القامة ، اشقر الشعر ، في طريقه الى الصلع وقد اتكأ على الباب دون مبالاة قائلا بلهجة انكليزية تشوبها بعض السلافية[٣] :

«هل طلبت الى الحضور ايتها السيدة فيلبي ؟»

كان هذا موظفا في السفارة السوفيتية !

الحاج «فيلبي»

ومنذ تلك اللحظة ، اضطرت السيدة الى ان تواجه حقيقة ان زوجها هو فعلا في «الاتحاد السوفيتي» ، فكيف حدث ذلك ، وهو كيم فيلبـي ، خريج جامعتي «ويستمنستر» و «كامبرج» وحامل وسام حربي رفيع تسلمه من يد الملك «جورج السادس» ؟

ان الاجوبة المتجمعة من اكثر المصادر وثوقا وبضمنها موظفـي المخابرات الغربية ، حافلة بالتناقضات ؟ ذلك ان «كيم فيلبي» رمز لجيـل عاش فترة سادها اضطراب المفاهيم والقسوة من جراء الحروب والثورات، لقد كان رجلا معتدلا ، فلو عاش في عصر اقل قسوة لحقق امنيتـه في ان يصبح ••• بطلا •

---

٣ ــ الـروس قـوم سلافيـون •

ولد يوم رأس السنة عام ١٩١٢ بمدينة «امبالا» في الهند ، فهو الابن الوحيد «لهاري سانت جون بريجر فيلبي» الذي كان انذاك موظفا في الحكومة الهندية والذي قيض له إن يصبح في المرتبة الثانية من حيث الشهرة بعد «اي • تي • لورنس»[٤] من حيث الاختصاص بالشؤون العربية في هذا القرن •

وفي غضون اقل من عشر سنوات ، صار والد «كيم» وزيرا لداخلية بلاد ما بين النهرين[٥] ومستشارا للمستر ونستون تشرشل وممثلا لبريطانيا في شرق الاردن[٦] ، ثم تدرج ليصبح المستشار القوى للملك عبدالعزيز بن سعود ، ورائدا للربع الخالي من شبه الجزيرة العربية ، نقد كان يجول هنا وهناك بملابسه العربية الفضفاضة ، واخيرا اعتنق الدين الاسلامي واتخذ لنفسه اسم «الحاج عبدالله فيلبي» •

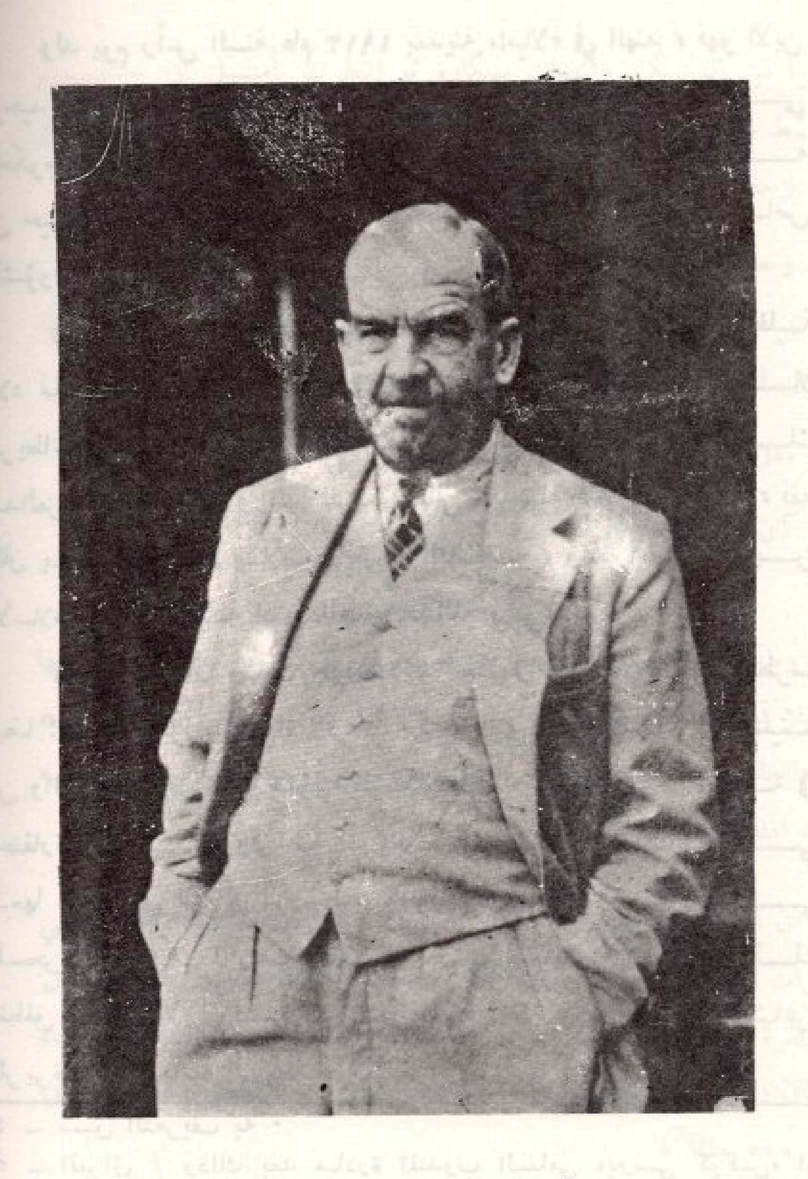
ولكن اذا كان «سانت جون» رائدا جسورا فقد كان انانيا متغطرسا ايضا ؛ بحيث تحول الى اداة لارهاب «كيم» الذي يعزى تلعثمه الى خشيته من والده ؛ زد على ذلك طفولته المؤلمة وذكرياته على تطرف ابيه في احتقاره للاساليب البيروقراطية البريطانية وتهجماته على السياسة التي تبعها «لندن» في الشرق الاوسط ، والواقع ان فيلبي الاب تعرض الى السجن عام ١٩٤٠ لمعارضته المجهود الحربي للحلفاء • من كل ذلك تنطلق اللمحة الاولى لتصرفات كيم اللاحقة ؛ فقد ورث عن والده مشاعره المريرة ازاء السياسة البريطانية •

---

٤ ـ سبق التعريف به •

٥ ـ العراق / وذلك بعد مبادرة المندوب السامي «بيرسي كوكس» الى ابعاد وزير الداخلية «طالب باشا النقيب» من البلاد •

٦ ـ المملكة الاردنية الهاشمية حاليا •



الحاج عبدالله فيلبي

حيـــاة الاوهـام

الغريب في امر «كيم» انه لم يكن يعرف والده جيدا ، فعندما لم يكن فيلبي الاب منشغلا بمهام تقديم المشورة للامراء ورؤساء الوزارات ، والملوك، كان يذهب في رحلات الى مناطق عديمة الطرق والمسالك أو يضع كتابا . كما ان «كيم» لم يكن ليجتمع بوالده الا نادرا وذلك خلال العطل التـــي كان يقضيها في الشرق الاوسط او عندما يقوم والده بزيارة لبريطانيا .

اما بقية الوقت ، فقد كان يمضيه مع اقاربه او خلانه في المدرســـة بانكلترا ، غير ان علاقته مع والده كانت كافية لان تبث في نفس الابـــن اوهاما صاحبته طوال حياته وشهوة لركوب المخاطر وعزما اكيدا عـــلى ان يبلغ مستوى والده في المغامرة بطريقة أو بأخرى .

ويذكر احد اصدقاء كيم القدامى أن شعوره ازاء ابيه لم يكن خوفـا شديدا فحسب ، بل مزيجا مركبا من الحب والكراهية ، فمنذ بداية حياتـه كان شبح والده يطارده ويحوم حول كتفيه كأنما يتحداه ان يحرز مـــن البطولات مثلما احرز .

حقبـــة مرعبـــة

اذن ، كيف يرد على التحدي ؟ فليبدأ بالذهاب الى نفس المدرسةالتي تثقف والده فاتجه الى ويستمنستر ويذكر احد اصدقاء كيم في المدرســة ، وهو الان من قادة الاشتراكيين ــ انه كان يعيش حياة يسودها الغموض ايام صباه وانه كان يمشي وكأنه ينوء من جرح خفي .

وفي عام ١٩٣١ دخل كيم كلية «ترينتي» التابعة لجامعة كامبرج والتي

كانت تجسيدا للمدرسة الكلاسيكية البريطانية بعمارتها القوطية واسوارها العالية المحيطة بساحة من العشب الاخضر توسطها نافورة بديعة ، وفي الامسيات كان «كيم» يصغي الى التراتيل التي يرددها الفتية المتدينون او الاناشيد التي تمجد الوطن وتدعو لبذل المهج من اجله .

ومن المحتمل ان تبدو هذه الاغاني وكأنها صوت اخر في مفهوم «كيم» ، عصر لا علاقة له مطلقا بأحد طلبة كمبرج في بريطانيا الثلاثينات .. الحقبة المرعبة التي اتسمت بالبطالة ومسيرات الجوع وظهور هتلر . ومن الصعب بالنسبة لاي انسان معاصر ان يدرك عمق المشاعر المناهضة للتقاليد والمفاهيم السياسية الكلاسيكية من جانب المثقفين البريطانية تلك الايام ، ولم تكن اللا وطنية امرا مقبولا فحسب ، بل صارت دليل التقدمية . ويقول ستيفن سبندر بهذا الصدد :«لقد نسفت الحرب العالمية الاولى ارضية قاعة الرقص من تحت اقدام الطبقة الوسطى البريطانيين ، فصار الناس كالراقصين المعلقين في الهواء . ومع ذلك كان بمقدورهم التظاهر باعجوبة بانهم ما زالوا يرقصون . وكان هناك محيط شامل من اللا واقعية لم يفسح المجال امامنا الا لاختيار احد امرين : ان نكون ماركسيين او فاشيين فمجرد كوننا اشتراكيين لم يكن امرا ـ مثيرا ـ بما فيه الكفاية ..»

ولم يكن «كيم» طالبا بارزا ويتذكره اصدقاؤه في «ترينتي» كمغامر ورومانتيكي له الباع الطويل في هذين المضمارين ، بيد انه كان متزنا خلقيا ومثالا للسلوك الحسن . ويذكر احد زملائه انه كان مهتما للغاية بالاحوال المزرية للانسانية عموما والطبقة العاملة البريطانية خصوصا ،

وكانت عواطف «فيلبي» السياسية مع حزب العمال واشترك في الحملات الانتخابية لمصلحة مرشحي الحزب . وعلى اية حال ، فبان مصادر الاستخبارات تعتقد بانه اصبح ماركسيا في غضون تلقيه العلم في «ترينتي» متأثرا بزميلين له هما «دونالد ماكلين» و «غي بيرجيس» اللذين قيض لهما ان يلعبا دورا حاسما في حياته فيما بعد كما سيأتي تفصيله .

مهمة مزدوجة

تخرج «فيلبي» من «كامبرج» عام ١٩٣٣ وصار صحفيا ومن ثم تزوج وسافر الى القارة الاوربية . ولم تعكس رسائله ومقالاته ، انذاك ، اي تحيز موال للسوفيت ، بل على العكس ، بيد ان زوجته «ليزا» كانت فتاة بولندية نشطة وعالية الهمة ومن مؤيدي الحكومة الجمهورية في اسبانيا التي قامت عام ١٩٣٤ . وما ان اندلعت الحرب الاهلية هناك سنة ١٩٣٦ حتى حولا شقتهما في «باريس» الى مركز تجنيد لقوات الجمهوريين . ويعتقد ضباط الاستخبارات الغربيون ان «فيلبي» قد استدرج للعمل لحساب الاتحاد السوفيتي في تلك الفترة بالذات ، وانه مارس هذه المهمة ، تحت غطاء من السرية المطلقة ، عندما كان يغطي انباء قوات «فرانكو» لحساب صحيفة «التايمز» اللندنية . والغريب ان رسائله لم تكشف اي تحزب حتى انه تنبأ بان «فرانكو» سينتصر وهذا ما تم فعلا عام ١٩٣٨ الذي شهد ، ايضا ، طلاقه من «ليزا» .

واراد «كيم» المساهمة في القتال في الحرب العالمية الثانية ، بيد ان تلعثمه حرمه من الحصول على رتبة ضابط في القوات الفعالة ولكنه عين بواسطة اصدقائه في منصب عال في الشعبة الخامسة التابعة لدائرة المخابرات

العسكرية السادسة[٧] ، وقبل ان يتولى مهام وظيفته ، صارح رؤساءه بانه تخلى عن جميع ارتباطاته السابقة ، بما في ذلك ما قام به في غضون الحرب الاهلية الاسبانية . لذا ، فان ماضيه او ما كشف عنه النقاب من ذلك الماضي ، لم يصبح حجة ضده في وقت كان السوفيت فيه رفاق سلاح وكل نشاط مناهض للفاشية عملا وطنيا . وكانت مهمة «فيلبي» الخاصة في الشعبة الخامسة التابعة لدائرة المخابرات العسكرية السادسة هي السيطرة على فعاليات الجواسيس البريطانيين المزدوجين والتغلغل في مخابرات الخصوم . ومن المفارقات ان واجباته تضمنت تزويد السوفيت بمعلومات زائفة ، وسرعان ما حصل على الشهرة لنبوغه في عمله .

تلويح بالقبضة

وكان مقر «فيلبي» قصرا مريحا على الطراز الايدواردي[٨] باحد الفروع اليمنى لشارع «جيمس» في «لندن» . وكان الطابق الاعلى من القصر مشغولا من قبل الدائرة الامريكية للخدمات الاستراتيجية وهي التي استبدلت ، بعد الحرب ، بوكالة المخابرات المركزية . وكان «كيم» يرتدي، في العادة ، بدلة عسكرية مستعملة انتقلت اليه من والده ، ومن بين مرؤوسيه خلال تلك الفترة اثنان من ابرز الكتاب البريطانيين هما

---

٧ ـ M. 1. 6. هو التعبير العسكري للمخابرات البريطانية التي تمارس اعمال التجسس ومكافحة التجسس فيما وراء البحار . أما M. 1. 5. و ـ دائرة المخابرات العسكرية الخامسة ـ فهي مصلحة الامن الداخلي .

٨ ـ نسبة الى احد ملوك بريطانيا القدماء .

الروائي «غراهام غرين» والناقد «مالكوم مغريدج» الذي كان يعتبر «فيلبي» اداريا من الطراز الاول .

وقبل ان تضع الحرب العالمية الثانية اوزارها ، اصبح «كيم» رئيسا لمجمل عمليات مكافحة التجسس في دائرة المخابرات العسكرية السادسة وتطلب منه ، بهذه الصفة ، تقديم المزيد من التقارير عن نشاط السوفيت في اوربا الغربية . ويتذكر «مغريدج» ذات مساء عندما اقترح فيلبي قيامهما ببعض الاستطلاع للسفارة السوفيتية التي انتقلت توا لمبنى جديد في شارع دي غرينيل : «سرت وكيم جيئة وذهابا كيفما اتفق خارج السفارة ، وهو اجراء مهني في منتهى الغرابة ، وتساءلنا عن كيفية التغلغل في ذلك البناء الحصين والمحروس جيدا ، وكان كيم منفعلا وتواقا بصورة بعيدة عن المألوف حتى انه كان يميل الى التلويح بقبضته في وجه قلعة عدونا الجديد ..»(٩)

ونال الوسام !

والحقيقة ، فان الحكومة البريطانية شرعت في الاعتقاد بان «فيلبي» قد جند فعلا في المخابرات السوفيتية وانه كان يقوم بنقل المعلومات السرية للروس طول ايام الحرب ولكن من غير المستطاع كشف النقاب عما قدم لهم من معلومات بالضبط ؟ فقد كانت اتصالاته العديدة والمكشوفة معهم فوق مستوى الشبهات حتى أنه نال ، في نهاية الحرب ، وسام الامبراطورية . ويتذكر احد اصدقائه انه ما ان حل يوم النصر حتى اسكن مع زوجته

---

٩ ـ كان ذلك قبل اندلاع نار الحرب الباردة بين الشرق والغرب سنة ١٩٤٦ .

الثانية ، واسمها الينور ايضا ، في بيت مشرف بساحة كارليل واخذ بالانفاق بقدر يفوق دخله الرسمي .

وبعد انتهاء الحرب ، استشير «مغريدج» وزملاء «كيم» الاخرين بشأن صواب بقائه في اعمال المخابرات ايام السلم ، ويقول الاول : «وكان من رأيي انه يتصف بمعظم المؤهلات المطلوبة ... غير انني امتنعت شخصيا عن قيامي بترشيحه بشكل نهائي نظرا الى انني كنت اعتبره غير متزن بالاساس . ورغم ذلك فقد تم استخدامه ومن ثم ترقيته .»

ويعلق «مغريدج» على ذلك بقوله : «ومن اسباب انهيار اية طبقة حاكمة عجزها عن التعرف على اعدائها . هذا اذا لم تفضلهم في الواقع ، على اصدقائها !»

مركز خطير

وفي عام ١٩٤٧ تم ارسال «كيم» الى اسطنبول ليشغل مركز السكرتير الاول للسفارة البريطانية كموظف في وزارة الخارجية ، في الظاهر ، بينما عهد اليه القيام باعمال المخابرات في الجهة الجنوبية الغربية للاتحاد السوفيتي . وما ان حل عام ١٩٤٩ حتى نقل الى «واشنطن» حيث تسلم ايضا منصب السكرتير الاول للسفارة البريطانية هناك على ان يمارس مسؤولية ضابط اتصال مع الحكومة الامريكية حول قضايا الامن ، لذا فان اتصالاته مع وزارتي الخارجية والدفاع ووكالة المخابرات المركزية كانت متعددة ووثيقة ويبدي بعض المسؤولين الامريكان شكوكا في ان «فيلبي» قد نقل اسرارا امريكية الى الروس عندما كان في عاصمة بلادهم ، اما

غيرهم ، من المطلعين على القضية ، فيعتبرون ذلك امرا غير محتمل وحجتهم انه ما دام السوفيت واثقين من امكانية تقدم «فيلبي» الى اعلى منصب في المخابرات البريطانية فانهم لم يرغبوا في تلك المرحلة بالمجازفة بتلك الفرصة والاستفادة منه قبل الاوان ، بل رأوا ان من الافضل الانتظار وعد الايام ومن ثم استثمار خدماته عندما تكون في غاية المنفعة .

صداقة حارة

وفي اب ، ١٩٥٠ عاد «بيرجيس» الى الدخول في حياة «فيلبي» اذ تم نقله الى «واشنطن» لتولي منصب السكرتير الثاني للسفارة البريطانية . وهكذا استؤنفت صداقته القديمة مع «كيم» بكل حرارتها السابقة ، وسرعان



غي بيرجيس : الرجل الاول في فضيحة فيلبي

ما صارا قرينين مألوفين في حفلات الكوكتيل يعقدان الصداقات مع المشهورين ويستهلكان كميات تثير الدهشة من الويسكي الاسكتلندي ، وتطور الامر الى حد انتقال «بيرجيس» الى منزل «فيلبي» جالبا المزيد من الفوضى الى بيت يسوده الاضطراب اصلا نتيجة لاصابة زوجة الاخير بخلل عقلي .

وبمرور الوقت ، اصبح سلوك «بيرجيس» الذي كان متسما بالشذوذ دوما ، هستيريا بصورة مكشوفة اذ صار مؤمنا بان الولايات المتحدة الامريكية على وشك الاقدام على شن حرب عالمية ثالثة . ولم يكتف بالتعبير عن رأيه صراحة في حفلات الكوكتيل ، بل حتى في تقاريره المرفوعة الى رؤسائه ، والغريب انه لم يتبين قط ان فيلبي كان شريكا لبيرجيس في آرايه المناهضة لامريكا . ومن بين تصرفاته الطائشة العديدة الاخرى انه تخاصم ذات مرة مع احد المعلقين المعروفين واوقف في ثلاث مناسبات بسبب السياقة السريعة وتورط في حادث ارتطام سيارته باخرى وفي صحبته شخص مطلوب من قبل الشرطة ، وكانت هذه هي القشة الاخيرة بالنسبة الى السير «اوليفر فرانكس» السفير البريطاني الذي بادر الى الطلب من الوايتهول[10] تخليصه من «بيرجيس» ، وقبل ان يتم اتخاذ اجراء بهذا الشأن ، اكتشف «فيلبي» عن طريق ارتباطه بالحكومة الامريكية ان مكتب التحقيقات الاتحادي يشك بان «بيرجيس» و «ماكلين» ايضا كانا جاسوسين للاتحاد السوفيتي ، فما كان منه الا ان اخبر نزيل بيته بالامر .

١٠ـ وزارة الخارجية البريطانية .

وبسرعة محمومة ، غادر «بيرجيس» الولايات المتحدة في نيسان ١٩٥١ حتى بدون الحصول على اذن من السفارة . وعند وصوله الى بريطانيا ، اطلع «ماكلين» على السر ، وكانت مصالح الامن البريطانية التي تعاني من شحة في الموظفين مشغولة آنذاك بمراقبة عدد من المشبوهين المهمين لذا فان مراقبتها «لبيرجيس» و «ماكلين» لم تكن على ما يرام ، وهكذا استطاع الدبلوماسيان الهرب الى اوربا الشرقية خلال اسابيع من عودة «بيرجيس» الى بريطانيا .

وبعد اختفاء «بيرجيس» و «ماكلين» اجرت المخابرات البريطانية تحقيقا مركزا مع «فيلبي» حول دوره في القضية ، فأكد لمسؤوليهم . بأن عمله لا يختلف عما يجب على كل عضو في «المدرسة القديمة» القيام به ؟ اذ انه اعطى «بيرجيس» خلاصة ، لنقل تلميحا عن التقرير الذي من المضحك تصديقه ، نظرا الى ان الوكالة التي رفعته اليه[١١] معروفة بخلق المزاعم التي تبعث على السخرية من وقت لآخر . وادعى «فيلبي» بان اتهامات المكتب ضد «بيرجيس» و «ماكلين» جاءت ضمن تقرير روتيني ورد مع كومة من التقارير الروتينية الاخرى التي تعالج ابعد الاشاعات عن الحقيقة .

من باب المقامرة

وذكر «فيلبي» ان «بيرجيس» دخل مكتبه ، صدفة ، بعد قراءة التقرير مباشرة . ومضى توضيح «كيم» الى القول بان تلك «الظروف» تجعل من اليسير ادراك السبب في أن يهتف بوجه صديقه قائلا : «هل

١١ـ مكتب التحقيقات الاتحادي .

تصور الهراء السخيف الذي يصدر الآن من مكتب التحقيقات الاتحادي ؟ انهم يزعمون بانك جاسوس سوفيتي !» وادعى «فيلبي» بان «بيرجيس» تلقى النبأ «بهدوء تام» وشاركه في ضحكه الساخر بيد انه غادر السفارة مبكرا ذلك اليوم •

وعندما عاد «فيلبي» الى منزله فيما بعد «اكتشف» رحيل «بيرجيس» بعد ان عبث بمحتويات الدار • وصرح «كيم» بأنه ادرك «آنذاك» ان بيرجيس «قد يكون» جاسوسا للعدو ، فما كان منه الا ان سارع الى اخبار السفير البريطاني عن اختفاء صديقه وعن تصرفه «الطائش» هو بالذات صباح ذلك اليوم •

والان ، لماذا عرض «فيلبي» مركزه جميعا في المخابرات البريطانية للخطر كذلك أمكانية وصوله الى المركز الاعلى فيها ، عندما أقر بانه المسؤول عن تحذير بيرجيس ؟ الجواب واضح ؛ اذ لم يكن امامه اي خيار فهو الموظف الوحيد في السفارة الذي يقرأ تقارير مكتب التحقيقات الاتحادي • ثم انه اعتقد ، من باب المقامرة ، ان معاذيره ستجد لها من متقبل، وكان صائبا في تقديره فما ان فر «بيرجيس» حتى اتحد موظفو السفارة البريطانية في «واشنطن» حول «فيلبي» مبررين ذلك بأن اي «جنتلمان» انكليزي كان سيمارس نفس التصرف ازاء زميل دراسة قديم •

حالة بؤس

وكان موقف السفارة مبعث سخط واستنكار مكتب التحقيقات الاتحادي ووكالة المخابرات المركزية ، فطلب الجنرال «والتر بيدل سمث»

رئيس الوكالة أنذاك ، ابعاد «فيلبي» وهدد بفك الارتباط حول القضايا السرية اذا لم يتحقق ذلك ، ولما كان الامريكان هم المتفوقون في مضمار العديد من الاسرار الهامة مثل الابحاث النووية ، فقد كان هذا التهديد أمرا لايستهان به ، وفي حزيران ١٩٥١ تم استدعاء «فيلبي» الى «لندن» وطرد من منصبه .

وطوال العام الذي أعقب ذلك ، عاش «كيم» في حالة بؤس مع زوجته الثانية واطفاله الخمسة في بيت والدته في «كنغستون» واقتصر دخله على الاعمال الكتابية التي عهد اليه بها احد اصدقائه القدامى ، ومن تم جرب حظه في الصحافة بصورة متقطعة ، وهبط به الامر الى حد تدوين انساب العوائل مستندا على خياله .

بـــخ خطـــة

ورغم ايمان الامريكان بما توصلوا اليه بطرقهم الخاصة في قضية «فيلبي» ، الا ان العديد من المسؤولين البريطانيين شعروا بانه تعرض الى ظلم فادح وانه علق على صليب المكارثية[١٢] ، ولكن على الرغم من الشكاوي من المكارثية ، فان الاوساط العليا في المخابرات البريطانية كانت على ثقة منذ البداية بان فيلبي لم يكن «الرجل الثالث» في قضية «بيرجيس» و «ماكلين» فحسب ، بل انه جاسوس سوفيتي صريح .

وبعد اجراء تحقيق واسع النطاق في ماضي «كيم» بدأ المسؤولون بالتسليم بعدد من الهواجس حول علاقته بالسوفيت في غضون الحرب ،

١٢ـ تيار يميني متطرف اجتاح الولايات المتحدة في بداية الخمسينات بزعامة السناتور «مكارثي» عضو الكونغرس .

ورغم ان الكثير من العلاقات الوثيقة في الماضي مع الروس كانت تنال تسامحا من جانب رجال المخابرات البريطانيين ، الا انهم ادركوا ان الظروف المحيطة بتصرف «فيلبي» الذي قال عنه بانه «طائش» ازاء «بيرجيس» كان في غاية الغرابة بحيث لا يمكن غض النظر عنه .

وبينما كان «كيم» يمزق عددا من افضل سني حياته في شبه عزلة ، اخذت المخابرات البريطانية بطبخ خطة لكشف اللثام عن حقيقة قضيته والاستفادة منه في اغراضها الشيطانية .

حبل على الغارب

تعتبر الجاسوسية من اشد الاعمال الاجرامية ثعلبية ؛ فكل ما تتطلبه من الجاسوس هو قيامه ، ببساطة ، بجمع المعلومات التي غالبا ما تتوفر لديه بالطرق المشروعة . بيد ان نقل هذه المعلومات هو الذي يشكل الجريمة ومن ثم تعريض القائم بذلك الى خطر الافتضاح . ومع ذلك فان لديه من الحيل، التي تتسم بها اشد المهن غموضا وتخفيا في تاريخ البشرية ، ما يجعل امر الكشف عنه من الصعوبة بمكان ؛ ولهذا ينبغي اعطاء المشتبه في امره كافة الفرص للعمل بحرية وذلك بهدف دفعه الى كشف امره بنفسه .

ولما كانت تحركات هذا المشتبه به غير مريبة عموما وغير مؤذية ظاهرا ، فغالبا ما يصعب معرفته كجاسوس ، وعلاوة على ذلك فاذاتكشف امره ، فمن الضروري التغاضي عنه بغية ازاحة النقاب عن الجهاز الذي يشكل هو جزءا منه ، ذلك ان مؤسسات مكافحة التجسس لا تهتم بالجواسيس قدر تركيز ذلك على معرفة الشبكات التي يعملون لامرها .

وعلى هذا الأساس ، فان كشف «فيلبي» لم يكن بالامر الذي يقتصر على جمع المزيد من الادلة في قضية «بيرجيس» و «ماكلين» اذا كان من الضروري ، كما اكدت المخابرات البريطانية ، ترك الحبل على الغارب «لفيلبي» للعودة الى ممارسة نشاطه ومن ثم مراقبة تحركاته .

خطة الخمس سنوات

لم يكن «كيم» في وضع يساعده على ممارسة اي عمل سري في في بريطانيا ، لذا صار من المهم وضعه في مكان ينشط فيه السوفيت وحيث يمكن ان يؤدي لهم الخدمات المطلوبة في رأي المخابرات البريطانية ؟ فلم لا يكون ذلك المكان في البلاد العربية ؟

فهناك يستطيع «فيلبي» الابن ان يتمتع بكامل هيبة والده وسمعته هو كخبير في شؤون الشرق الاوسط مع حرية كافية في التنقل . وفي الجو الحيادي الذي يسود البلاد العربية ، يمكنه التغلغل في المجتمع ولن يكون من الصعب ، آنذاك ، الكشف عن حقيقة تصرفاته ان كان في نيته الاقدام على عمل ما ، وبعبارة اخرى ، فان المخابرات البريطانية وضعته في الشرق الاوسط بأمل انكشف عن نفسه واماطة اللثام عن الاعضاء البارزين في الشبكة التي تعمل لحساب الشرق في البلاد العربية .

كيف تسنى لدائرة المخابرات العسكرية السادسة اعداد المسرح لهكذا عملية خطيرة ؟ لم يكن الامر يسيرا على الاطلاق ؟ فقد تطلب اعداد الخطة اكثر من خمس سنوات بين طرد «فيلبي» واليوم الذي حط فيه الرحال في الشرق الاوسط ؟ ذلك ان اية حركة قبل الاوان قد تثير هواجسه .

وكان المشروع موضع خلافات كبيرة بين دائرة المخابرات السادسة

والدائرة الخامسة ؛ اذ ارادت الاخيرة ابقاء «كيم» في بريطانيا مهما كـان الثمن • كما كانت هناك مشاكل متعددة ؛ فقد اصبح من الضروري ايجاد مؤسسة اهلية لتعرض على «فيلبي» العمل معها في الشرق الاوسط عـلى ان تتخذ كافة اطراف الحيطة حتى لا يكتشف «كيم» ان العرض سيجعل منـه مخلب قط •

الرجـل الثالـث

وبينما كانت الدائرة السادسة على وشك الشروع في تنفيذالخطـة، نهض الكولونيل[١٣] مارك لبتون النائب العمالي في مجلس العموم ووجـه الاتهام علنا الى «فيلبي» بانه «الرجل الثالث» في قضية «بيرجيس» و «ماكلين»، وفي السابع من تشرين الثاني ١٩٥٥ ، تلا المستر «هارولد مكميلان» وزير الخارجية آنذاك ، الرد المكتوب التالي :

«ليس هناك ثمة دليل على ان فيلبي مسؤول عن تحذير بيرجيس او ماكلين ؛ اذ ان الاول ، ابان خدمته الحكومية كان يقوم بواجباته بكفـاءة واخلاص ، لذا فانني لا اجد اي سبب يدفعني الى الاعتقاد بانه خان مصالح وطنه في اي وقت من الاوقات او نعته ـ بالرجل الثالث ـ المزعوم ان كان هناك ثمة رجل ثالث ••

وعندما تكون احدى قضايا التجسس موضوعا للتحقيق ، فاننـا لا نتوقع الصراحة من الحكومة في الموضوع ؛ انما على العكس فانها ستراوغ ان لم تلجأ الى الانكار التام • فقد كان «مكميلان» على علم بان «فيلبـي»

١٣ـ العقيـد •

رجل مشتبه به منذ مدة بعيدة ، الا انه أثر تزكيته في البرلمان بناء على رغبة خاصة من المخابرات البريطانية ولو على حساب سمعته الشخصية وما قد يلحق بها من اذى كبير فيما بعد .

وعلى اية حال ، فمن المعروف ان «مكميلان» اعد بيانه المذكـــور بالاتفاق مسبقا مع زعماء المعارضة بعد ان اوضح لهم ، على الاقل ، الاسباب الخفية الكامنة وراءه . وبعد بضعة ايام ، سحب الكولونيل «لبتون» اتهاماته الموجهة نحو «فيلبي» فاصبحت دائرة المخابرات السادسة طليقة اليد فـــي الاستمرار بتنفيذ خطتها .

شـــائعات

وفي الربيع التالي ، اتصل احد موظفي وزارة الخارجية ، بناء عـــلى طلب من المخابرات ، بادارة صحيفة «الاوبزرفر» الاسبوعية وطلب اليهـــا تعيين «فيلبي» مراسلا لها في الشرق الاوسط . ولقد احيط كبار موظفـــي الوزارة بان «كيم» هو موضع شك وان لم يكن ذلك امرا مؤكـــدا وان استخدامه سيؤدي خدمة وطنية كبيرة عن طريق مساعدة المخابـــرات البريطانية ، او على الاقل سيكون اجراء خيريا في انصاف احد ضحايـــا المكارثية .

وكانت المخابرات على معرفة من ايا من الحجتين ستحقق الغايـــة المرجوة ، اما اذا كانت «الايكونومست» قد قامت بنفس الدور ، فهـــذا ليـــس واضحـــا وقد يكـــون السبب في استخدامها «لفيلبي» هـــو كـــون «الاوبزرفر» قد استخدمته بالفعل . ومن حسن الحظ . ان «كيم» سبق

وان طلب الى «الاوبزرفر» استخدامه لديها ، لذا لم يجد غرابـــة في ان ينسب الى منطقة تنطبق عليها مؤهلاته بالذات . وفي ايلول ١٩٥٦ وفـــي خضم أزمة السويس غادر «كيم» بريطانيا في طريقه الى «بيروت».

ومنذ ان أختفى «فيلبي» اوائل عام ١٩٦٣ كانت الشائعات تدور عـلى اساس كونه جاسوسا مزدوجا في الشرق الاوسط ، متظاهرا امام المخابرات البريطانية بانه وكيلها ، بينما كان يعمل لحساب الروس في الواقع ، وتقول النظرية ان المخابرات البريطانية كانت على علم باتصالاته بالسوفيت ومن ثم شجعته على ذلك بالفعل لاعتقادها ان ولاءه الحقيقي هو لبريطانيا .



دونالد ماكلين : الرجـل الثانـي في الفضيحة

واستنادا الى افضل المصادر المتيسرة ، فان هذه الشائعات بعيدة عن الصواب ؛ فهناك الكثير من الاسباب التي تبرر عدم استخدام الانكليز لفيلبي كجاسوس مزدوج ؛ واول هذه كونه مواطنا بريطانيا • ونادرا ما لجأت المخابرات ، اية مخابرات ، الى استخدام جاسوس مزدوج من بين مواطنيها • كما ان «فيلبي» كان رجلا عاطفيا عديم الاتزان • ثم ان ادمانه على الشراب يجعل منه رجلا غير مؤتمن •

نزر يسير

وفي غضون العام الاول من وجود فيلبي في بيروت ، تراكمت عليه ديون كثيرة فضلا عن نفقات اعالة اسرة تركها في بريطانيا (اذ ان زوجته الثانية التي توفيت عام ١٩٥٧ ، اضطرت للعمل كخادمة منزل ، اما اطفاله الخمسة منها فقد ترك امر اعالتهم الى بعض الاقرباء) هذا وان عمله المشترك لدى صحيفتي «الاوبزرفر» و «الايكونومست» ما كان ليدر عليه سوى النزر اليسير من المال • وكان يحيا حياة من البساطة بحيث لم يتسن لاحد اكتشاف محل اقامته بسهولة ، فقد كان يستلم بريده في فندق «نور مندي» المطل على البحر ، واذا رغب احدهم في زيارته في غضون ساعات النهار فكل ما يتمكن من معرفته من خادم مشرب الفندق انه «يعيش هناك في مكان ما» مشيرا الى الشوارع الضيقة خلف الفندق في احدى الحارات التي يصعب على المرء معرفة طريقه فيها •

وبعد فترة قصيرة من وصوله الى بيروت ، أسر احد الموظفين البريطانيين الى بعض الامريكان والانكليز القاطنين في العاصمة اللبنانية ان

«فيلبي» قد يكونذا ارتباطات مع الشرق وانه «ميرحب» بأية معلومات يقدمها هؤلاء لاثبات التهمة . وهكذا اصبح فيلبي منذ ان وطأت قدماه ارض الشرق الاوسط موضع «رقابة مستترة» كما اطلق عليها آنذاك . والحقيقة فان هذه الرقابة ما كانت لتتجاوز نطاق توجيه الدعوات التي لم تثمر شيئا ما ، اما دائرة المخابرات العسكرية السادسة فلم تلق ضوءا ساطعا على نشاطه .

ومن بين الامريكيين الذين طلب منهم مراقبة فيلبي المستر «بوب بريور» مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» في الشرق الاوسط . وبين عامي ١٩٥٧ و١٩٥٨ كثرت لقاءات «بريور» وزوجته «الينور» مع كيم ، وكأي شخص آخر من جماعة «الرقابة المستترة» فقد توصل هذان الى ان الاخير شخص بعيد عن الاذى تماما ؟ فان كونه مراسلا لصحيفتين مشهورتين يعطيه الحق في الاستفسار عن عدد كبير من القضايا البريطانية والامريكية شبه السرية . غير ان زياراته العرضية للسفارة كانت روتينية حتى عندما كان يلقى اليه بالطعم الذي قد يشوقه الى معرفة المزيد من الاسرار .

غرام جديد

حاول «كيم» عند بداية اقامته في «بيروت» ان يخفف من الافراط في الشراب ، غير انه عاد الى طبيعته الاولى مع مرور الايام واتخذ لنفسه سبيلا في الحياة هو اسوأ ما يمكن للجاسوس القيام به مما دفع احد الموظفين الغربيين ، في حينه ، الى التعلق قائلا : «اذا كان هذا ظل للسوفيت فانه لن يحقق المرام» . وذات مرة افرط في الشراب في مأدبة

عشاء دبلوماسية توجه بعض العبارات البعيدة عن المألوف الى قرينة السفير الفرنسي مما حدا بدبلوماسي غربي الى القول : «اذا كان هذا وكيلا روسيا، فاننا نرحب بالمزيد من امثاله».

ومن الغريب حقا ان العلاقة الغرامية الوحيدة لكيم في بيروت كانت مع زوجة صديقه «سام بوب بريور» ولم تكن هذه العملية مجرد افتتان جسدي ؛ ذلك ان «الينور» لم تكن «افروديت» كما انها تجاوزت منتصف الاربعينات ، مثلها في ذلك مثل «كيم» ، وخلال فترة الغرام ،كثيرا ما شوهد الثلاثة سوية في المحلات العامة كما كان «فيلي» كثير التردد على منزل «بريور» واعتاد الرجلان على الانطلاق سوية لاداء المهام الصحفية .

ساتزوج زوجتك !

بيد ان الصداقة بين «كيم» و «بريور» تحطمت بلا تكلف ذات صباح من ربيع عام ١٩٥٨ ، قبل اندلاع الحرب الاهلية اللبنانية الاولى بوقت قصير ، واستنادا الى اقوال الاصدقاء المقربين ، فقد اجتمع الثلاثة لتناول البن في شرفة فندق «سان جورج» . وهناك ، وتحت ظلال تلك الجبال الرائعة المطلة على المياه المخملية لغربي البحر الابيض المتوسط صمم «فيلبي» على اتخاذ قراره النهائي .

كان «بريور» و «الينور» يتخاصمان ، وبعد فترة ازدادت علائم التوتر العصبي في وجه «كيم» الذي سارع الى القول :

«الينور ، هـ ـ هيابنا الى اخبار ـ اخباره»

وتساءل بريور : «اخباري بماذا ؟»

«ال ـ لينور وانا نر ـ نريد ـ الزو ـ الزوا ـ الزواج •»

وهتف بريور متعجبا :

«هل تقصد انك تطلب يد زوجتي مني ؟»

شيء ـ اش ـ اشبه بذلك •»[14]

معـين الحب

وسرعان ما توجهت «الينور» الى «المكسيك» لاتخاذ اجراءات الطلاق، وظل «كيم» في «بيروت» لتغطية الانباء عن الحرب الاهلية ، بينما نقـل «بريور» الى «نيويورك» دون الاشارة الى السبب الحقيقي لذلك • وبعـد اسابيع تزوج «كيم» من «الينور» وانتقلا الى شقة بديعة وبدا ، فجأة ، كما لو ان لدى الزوج الجديد من النقود ما يفوق الماضي ووصل طفلاه الصغيران من بريطانيا وابنة «الينور» البالغة من العمر ثماني سنوات من المدرسة فـي «سويسرا» وبين عشية وضحاها تحولت حياة «كيم» الى حيـاة منزليـة رصينة ؛ فلم يحدث قط ان تشاجرا ، بل على العكس ، فقد بدا كما لو ان احدهما يعتمد على الاخر الى حد العجز عن الفراق •

وكلما انتاب «كيم» غم أو هم ، تعلق «بالينور» كما لو كان طفـلا صغيرا خائفا ، وكانت هي العنصر القوي بعد أن برز كيان العائلة • ويتذكر صديق مقرب اليهما • «لقد كان هناك شيء ما مؤثر حقا في الزوجـين ، فيمكنني حتى اليوم ان اتصورهما امام ناظري؛ جالسين سوية جنبا الى جنب على أريكة بالية ينهلان من معين الحب في بداية خريف حياتهما وقـد مسكا يدا بيد •»

١٤ـ وهذه واقعة لم يسبق لها مثيل •

وافضل من يعطينا تفاصيل هذه المرحلة من حياة «فيلبي» هو «ادوارد ستيهان» مراسل صحيفة «هيرالد تربيون» واحد اصدقائه المقربين : «وبعد وقت قصير من – الزفاف – شرع الزوجان بتبادل الزيارات مع العظماء واشباه العظماء في بيروت ، بيد انهما كانا يفضلان ، على العظماء ، اولئك الذين يتسمون بالاهمية اي المختصين بالشؤون العربية والمراسلين الاجانب والاساتذة الجامعيين والدبلوماسيين • وكان المعشر الذي يؤمانه متألقا وتسوده الاحاديث بالانكليزية غالبا والفرنسية احيانا والعربية نادرا حتى من قبل العرب ، تلك الاحاديث العلمية والمسلية التي لم تكن تختلف عما يمكن للمرء سماعه في باريس ولندن •

«وكثيرا ما كنت التقي بكيم في هذه الحفلات ، وكأغلب اصدقائه ، كنت اشعر ازاءه بمزيج من العطف والاسى ، وفي احدى الحفلات بشقتي حاولت تقديمه الى ملحقين في السفارة السوفيتية ، بيد انه ابدى نفورا مباغتا وقال : كلا ••• لا اريد التعرف على الروس !

«وقد حيرتني تلك الظاهرة الغريبة ، كما حيرت بقية الحاضرين ، بيد التي لم اعر ذلك اية اهمية كبيرة في حينه ، هذا وقد سبق لاحد الموظفين البريطانيين ان زودني بمعلومات موجزة عن ماضي كيم واخبرني عن الشكوك المحيطة به ، بيد ان ذلك لم يكن بذي اهمية نظرا الى انه كان ، في نظر معظم الدبلوماسيين الاميركان وانا افضل مراسل غربي في الشرق الاوسط • والحقيقة ، فانه كان احد القلائل الذين قاموا بمحاولات

جدية لتفهم وشرح الثورة الاجتماعية التي تجتاح المنطقة وظاهرة القومية العربية ».

الشرطي الهام

وما ان حل خريف عام ١٩٦٢ ، حتى اقتنع كل من له علاقة بقضية «فيلبي» انه حتى وان كان وكيلا سوفيتيا ، الا انه لم يكن ليمارس اي نشاط فعال ، او ان نشاطه اقتصر في الغالب على تبادل معلومات عامة مع السوفيت من وقت لاخر .

وفي هذه الفترة بالذات ، وقع حادث ادى الى اثارة القضية مرة اخرى ؛ وخلاصة هذا الحادث ان «فيلبي» حاول تجنيد وكيل للمخابرات البريطانية فقد اتصل بشخصية سياسية عربية واخذ بتوطيد صداقته معها . واخيرا اقترح بان السيد الفاضل قد يكون ذا قيمة لحكومة صاحبة الجلالة البريطانية (بطريقة ما) فكان من الواضح انه يريد اقناع الرجل بالعمل في المخابرات . اما هذا ، فلم يصدق اذنيه ، ولكنه استدرج «فيلبي» حتى حصل منه على وعد قاطع بتزويده بالمال .

ولكن الذي تبين ، بعد ذلك ، ان الشخصية العربية كانت في خدمة المخابرات البريطانية فعلا ، وعندما رفع السياسي تقريره حول الموضوع الى «مسؤوله» توصلت «دائرة المخابرات العسكرية السادسة» الى دليل ملموس على ان «فيلبي» قد يمارس تجنيد الوكلاء للسوفيت بينما يتظاهر بتجنيدهم للبريطانيين . وتجاه هذه البديهية ، اخذت فعاليات «كيم» الماضية خارج «لبنان» وزياراته المستمرة لسوريا والاردن والجزيرة العربية

ومعلوماته الواسعة عن قضايا شركات النفط واتصالاته الغربية في سائر ارجاء الشرق الاوسط ، اخذت هذه القضايا شكلا يتطلب الحزم .

وعندئذ قررت المخابرات البريطانية وضع «فيلبي» تحت رقابة مشددة ليل نهار ؛ ولما كانت المخابرات تراقب عددا كبيرا من الاشخاص في ذلك الوقت ، وبالنظر لقلة عدد موظفيها ، فقد فاتحت العقيد «توفيق جلبوط» قائد قوى الامن اللبنانية وطلبت منه ابداء المساعدة .

كان العقيد «جلبوط» رجل الموقف ، فهو شرطي لامع ولربما كان من اكفأ ضباط مكافحة التجسس في العالم . ولما كانت «بيروت» كبقية عواصم البلاد العربية مسرحا لدسائس الاجانب ، فقد استطاع «جلبوط» بالرغم من عدم توفر امكانيات «مكتب التحقيقات الاتحادي» او «سكوتلانديارد» لديه الحصول على معلومات دقيقة ووافية عن اجهزة المخابرات التابعة للدول الكبرى والعاملة في لبنان .

نتائج غريبة

والحقيقة ، ان العقيد المذكور كان على علم بنشاطات «فيلبي» وادخله بالفعل ، في قائمة المشبوهين منذ الصيف السابق . وعندما اتصل البريطانيون بالعقيد «جلبوط» اشتبه ان كيم كان في الواقع جاسوسا بريطانيا مزدوجا فلت من اليد بصورة ما . وكان هذا الاشتباه مدار كثير من المناقشات بل وكثير من الاحداث المعقدة حتى اقتنع بعكس ذلك .

وسرعان ما ابرزت الرقابة اللبنانية نتائج غريبة ، فقد اكتشفت قوات «جلبوط» بان «فيلبي» يعيش حياة مزدوجة ؛ فهو يتنقل في المدينة

بصورة محمومة ليتجنب المراقبة ويزور محلات لا علاقة لها بعمله الصحفي للاجتماع ، سرا بشخصيات مشتبه بها • وفي ليلتين متعاقبتين ، لاحظ احد رجال الامن اللبنانيين ان «فيلبي» يقف على شرفة منزله المكشوفة ويحدق في ساعة يده ، ثم يمضي هناك بضع دقائق ويعود للتحديق بساعته ويبادر الى التلويح بجسم مظلم في الهواء •

اتصال مباشر

وبايعاز من رئيسه ، زود رجل الامن بمنظار ليلي وعاد الى نقطة المراقبة في الامسية التالية • وحوالي منتصف الليل ، ظهر «فيلبي» في الشرفة مرة اخرى وبدأ بارسال اشاراته •

وكانت الخطوة التالية التعرف على الشخص الذي يستلم الرسائل ؛ ورغم ان شقته كانت فوق تل وتشرف على الاف النوافذ في «بيروت» ناهيك عن السفن الجاثمة في الميناء ، فقد اجري بحث شامل • وبطريقة ما استطاعت قوات الامن اللبنانية القاء القبض على شخص ارمني مغمور ضئيل الجسم ، فاعترف باستلامه لرسائل «فيلبي» ونقلها الى وسيط اخر •

ومن الصدف ، ان الرجل الارمني لم يكن قادرا على تفسير محتويات او معرفة معاني رسائل «كيم» كما ان البوليس اللبناني لم يستطع حل هذه الشفرة ، وكذلك رجال المخابرات البريطانية العاملين معه •

وهنا طلب الانكليز من السلطات اللبنانية حجز الارمني بضعة اسابيع بغية قطع خط «مواصلات» فيلبي ومن ثم اجباره على الاتصال مباشرة برؤسائه في عالم المخابرات ، وقد كان النجاح حليف هذه الخطة؛

بعد مضي شهر و «كيم» لا يتلقى ردا على رسائله الليلية ، اضطر الى خرق المبادىء الرئيسة للتجسس ، فاتصل بمسؤوليه مباشرة .

ملاحقــــات

وفي ساعة متأخرة من احدى الليالي ، غادر «فيلبي» شقته واستدعى سيارة اجرة واتجه الى حي الملاهي المختنق عادة بحركة النقل ، فقفز من سيارة الاجرة وسار بخفة في طريق ذا ممر واحد باتجاه معاكس واستدعى سيارة اجرة اخرى واتجه نحو كشك هاتف يقع في قسم اخر من المدينـــة واجرى محادثة قصيرة اعقبها ارتقاء عدة سيارات اجرة ومحاولات بارعـــة للتخلص من مراقبيه . بيد ان هؤلاء ظلوا في اعقابه حتى وصل الى محلـة «فرن الشباك» فغادر سيارة الاجرة ، وصعد الى شقة شبه مظلمة تقع فـوق حانوت لبيع الحلويات يديره شخص ارمني . وبعد بضع دقائق ، انضـم اليه موظف من السفارة السوفيتية ، وهو شاب مربوع القامة ، اشقر الشعر خفيفه ، وهو نفس الرجل الذي ظهر على اعتاب دار السيدة «فيلبـــي» في وقت لاحق استجابة لاشارتها بواسطة وعاء الزهور .

دسيســة

اما تفاصيل الاجتماع الذي تم فـوق حانـوت الارمنـي فـستظل مجهولة ، الا ان السلطات اللبنانية قررت وقف التعقيبات بحق «فيلبي» اذ توصل العقيد «جلبوط» الى ان «كيم» غارق في دسيسة شرقية ـ غربيــة ليس لها علاقة خاصة بالحكومة اللبنانية ؛ ثم انه كان بحاجة الى وكلائــه لتركيز المراقبة على عشرين او ثلاثين من السياسين الاجانب المشتبه بـــان

لهم علاقة مباشرة بشؤون لبنان ، غير ان البريطانيين ، كانوا يستحسنوا غلق القضية •

وفي أواخر عام ١٩٦٢ ، قرروا مجابهة «فيلبي» ببعض الشكوك القائمة ضده • ويعتقد ان «كيم» كان على معرفة بانه موضع رقابة ؛ ولا غرابة في ذلك اذ ان زوجته «الينور» كانت في وقت ما عضوا في جماعة «الرقابة المتسترة» • وعندئذ قدم من «لندن» ضابطان من المخابرات البريطانية وأخذا بالتحقيق مع «كيم» بطريقة لم تترك في نفسه ادنى شك بانهم على اطلاع واسع باتصالاته السرية • وقد وجد الاثنان ان اجاباته غير مقنعة ومتناقضة كلية وكافية لادانته •(١٥)

انتهت اللعبة

وعلى اية حال ، لم يكن الانكليز في موقف يسمح معه القاء القبض على «فيلبي» في ارض اجنبية او توقع قيام السلطات اللبنانية بابعاده ؛ اذ ان ارتقاءه عدة سيارات اجرة ودخوله الى مخازن الحلويات العائدة للارمن في منتصف الليالي لا يشكل خرقا للقوانين المحلية ، ثم ان عدم الولاء لصاحبة الجلالة البريطانية لا يعتبر جريمة في لبنان •

ومع ذلك انهارت اعصاب «كيم» ولاشك انه ادرك ان اللعبة قد شارفت على الانتهاء ؛ فما الحلول البديلة لموقفه ؟ كان بحاجة ماسة الى المال فهو متزوج ولديه عدة اطفال وعليه اعالتهم ، وقد اصابه شلل فكري فلم يعد يستطيع الكتابة • وهناك ادرك ان صحيفتي «الاوبزرفر» و

١٥ – يرجى من القارئ ان يتذكر ان «فيلبي» مواطن بريطاني •

«الايكونومست» ستستغنيان عن خدماته ، لذا فان الخيار لم يعد موجودا .

وفي امسية مأدبة العشاء التي اقامها «بلفور ـ بول» اختفى «فيلبي» . وبالرغم من ان قراره كان على عجالة ، غير انه يبدو طوعيا ؛ ولقد تطلب من العقيد «جلبوط» تمضية عدة اسابيع للعثور على الشخص الذي شهد رجلا تنطبق عليه اوصاف «كيم» وهو بصحبة حارسين ضخمين وهم يستقلون الباخرة الروسية «دولما تنوفا» التي اقلعت من ميناء بيروت فجر الرابع والعشرين من كانون الثاني ، ١٩٦٣ ، في طريقها الى «اوديسا» .

شحذ السيوف

وبعد اختفاء «كيم» تأرجحت «الينور» بين الصراحة التامة والتكتم الشديد في علاقاتها مع السفارة البريطانية في بيروت . ولم تطلب السيدة «فيلبي» مساعدة السفارة الا بعد ان تلقت «خطة العمل» في نيسان والتي كانت تقضي بان تستقل الطائرة التشيكوسلوفاكية من العاصمة . ومنذ ذلك الحين ، اخذت باطلاع السفارة بصراحة على جميع اتصالاتها مع «كيم» .

وفي مايس ، اتخذت السفارة ، بالتعاون مع السلطات اللبنانية ، لترحيل «الينور» وطفلي «فيلبي» سرا من بيروت ، فاودعت السيدة الطفلين لدى اقرباء «كيم» في بريطانيا ، وتابعت سفرها الى نيويورك لزيارة ابنتها «انا» التي كانت قد عادت الى الولايات المتحدة للعيش مع والدها «بريور» . وعندما رجعت «الينور» الى بريطانيا كانت بحالة من الانهيار العصبي بحيث آثرت العزلة ثم سافرت الى الاتحاد السوفيتي .

وفي الاول من تموز ، وخوفا من ان يكشف السوفيت النقاب عن «فيلبي» في مؤتمر صحفي بموسكو ، تراجعت الحكومة البريطانية عن موقفها السابق واعلنت بان «كيم» في الحقيقة هو «الرجل الثالث» في قضية «بيرجيس» و «ماكلين» وانه كان يعمل لحساب السوفيت «قبل عام ١٩٤٦» •

وسرعان ما شرع رئيس الوزراء «مكميلان» وزعيم المعارضة «هارولد ولسون» بشحذ سيفيهما ، وانطلقت صرخات غاضبة من بين صفوف المعارضة طالبة اعطاء حقائق كاملة عن القضية ،ناعتة «مكميلان» بالغباء او الخداع او بكليهما • اما الاخير ، فقد اطبق شفتيه ولاء لدوائر مخابراته واكتفى بالقول : «لي الامل في أن البرلمان سيدرك مدى الخطورة في الاجابة على هذه الاسئلة » • ولم توافق المعارضة على خدمة المصلحة العامة والتوقف عن المزيد من المناقشة لهذه القضية الا بعد ان اطلع «مكميلان» زعيم المعارضة «ولسون» على المجريات السرية لهذه المسألة • وفي الثلاثين من تموز ، اعلنت صحيفة «الازفستيا» ان الاتحاد السوفيتي قد منح حق اللجوء السياسي الى «فيلبي» وبذلك اسدل الستار على القضية التي ما زال الغموض يلف بعض جوانبها حتى الان •



الينور فيلبي تصل الى مطار موسكو للحاق بزوجها مع اثنين من ابنائه

الفهـــرس

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٦٧٤) لسنة ١٩٨٤

تاريخ الانتهاء من الطبع ١/٩/١٩٨٤

عدد النسخ المطبوعة ١٠٠٠٠ نسخة



عـــن المؤلـــف

- من مواليد محافظة ذي قار / العراق / ١٩٣٥ .
- حاصل على بكالوريوس لغات اجنبية من جامعة بغداد .
- شغل عدة وظائف لدى الدولة .
- عمل في جميع المجالات الاعلامية في العراق تقريبا ، بيد ان ابرز ما قام به تقديمه برنامج «القاموس السياسي» من اذاعة «بغداد» يوميا ولست سنوات متواصلة .
- صدر كتابه الاول عام ١٩٧٦ ، أما ما اصدره حتى الان فقد بلغ سبعة كتب .
- هذا هو كتابه الثامن .
- متفرغ حاليا للبحث والتاليف .
- عنوانه : بغداد ص.ب ٥١٦٥



السعر (١٫٥٠٠) دينار